أكرم جميل قنبس

عبد القدوس الأنصاري من روّاد الأدب والفكر العربي الإسلامي

دار الفرائد
للطباعة والنشر والتوزيع

عبد القدّوس الأنصاريّ

من روّاد الأدب والفكر
العربي والإسلامي

تاليف

أكرم جميل قُنبُس

الطبعة الأولى

دار الفـــرائـــــد

عدد النسخ (٢٠٠٠)

النـاشر: دار الفرائد

أحمد الحسن

دمشق ١٩٩٦

دار الفرائد للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - السيدة زينب - مفرق البيرقدار
هاتف: ٦٤١٦٣٧٢

الإهــــداء

إلى التربة الطاهرة التي تهفو إليها القلوب والنُّفوس في مدينة رسول اللَّه. صلى الله عليه وسلّم. حيث كانت ولادة الأديب الشاعر، المُفكّر الباحث، اللّغوي والمؤرّخ «عبد القدوس الأنصاري». أبو نبيه. الذي دَرَجَ وتعلّم في مسجدها النّبوي الشّريف...

وإلى أقرانه الروّاد من هذا الجيل العظيم...

اكرم جميل قُنبُس

يا رب!!

أنِرْ لي الطّريقَ طريقَ الحياةِ   وكُنْ لي المُعينَ لدى المعضلات
ولا تَدَعِ اليأسَ يَحتلُّ قلبي   فإنّي أرى اليأسَ صِنْوَ المماتِ
وأطلقْ يراعي الضّعيفَ بما   يُقوّي الوئامَ ويمحو الشّتات
وباعِدْ فؤادي بفضلك عن   مُداهنة الظّالمين الطُّغاة

وَقَوِّ جَناني على حرب مَنْ   لهم شيمة الذّئب في ثوب شاة
وهَبْ لي بياناً إذا صغْتُه   تميل إليه النّفوس الأُباة
وسدِّد خُطاي إلى كلّ ما   يعود على أُمّتي بالنّجاة
فأنْتَ الذي يُكرم القاصدين   وأنت الذي يمنح المكرمات [1]

الشاعر الرائد
محمد حسن فقي

---

١ انظر القصيدة في كتاب: الصيام وتفاسير الأحكام لعبد القدوس الأنصاري ص١٣١.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

بسم الله الواحد الأحد، الذي يذلّل الصعاب لمن يتوكّل عليه... وبعد: لم تكن بواعث نهضة الفكر العربي في القرن التاسع عشر الميلادي/ الثالث عشر الهجري ـ مقتصرة على مكان محدّد في وطننا العربي، لكنها، ربما كانت أكثر إشراقاً وشيوعاً في بعض مناطق من مناطق أخرى، وذلك لأسباب مختلفة...

وخلال هذه المرحلة، كان رائدٌ من روّاد الأدب والفكر العربي والإسلامي، يكتب سجلّ تاريخه الحافل بالمآثر الخالدة، فوق بقعة من أشرف بقاع الأرض وأطهرها... إنه الأديب المعروف، والكاتب الفذّ، المؤرخ الشاعر العربي السعودي «عبد القدوس الأنصاري» الذي استطاع تدوين الكثير من آثار الجزيرة العربيّة عبر مؤلفاته العديدة والعظيمة، فأثرى المكتبة العربيّة بكتبه الأدبية الهادفة، وأنشأ مجلة عربية عظيمة تُعَدُّ من أقدم المجلاّت العربية.

وله قرينٌ في دمشق الشام، هو المرحوم الأديب الشاعر المؤرّخ «أحمد عبيد»، الملقّب «بأمين التراث العربي».

والأستاذ الأنصاريّ، يُعَدُّ واحداً من جيل الروّاد، فهو أديب عالم مؤلف باحث، أثّر في الفكر الحجازي والعربي تأثيراً كبيراً، وكان صاحب مدرسة أدبية وفكرية، لها رصيدها في المجتمع الإنساني، حتى أصبح في مقدمة الأعلام الخالدين.

لقد عاشَ عبد القدوس الأنصاري ـ رحمه الله ـ قضايا الأدب والفكر بوجدانه وخاض ميادينهما، وغاص في بحورهما، وبحث في خباياهما وأسرارهما بعقلية موسوعيّة، تجود فلا يبخل على العلم بعطائها الثرّ، فهو دوماً ثرُّ العطاء، سخيٌّ، جوادٌ بعلمه وفكره، ونتاج قريحته.

ومنذ أن عُرف في فجر حياته، لم تفتر له عزيمة في السّعي وراء الحقيقة بالبحث المضني، والتحقّق الدقيق. فلقد تسربل وشاح المعرفة، واتزر الأدب، والتحف العلم، ثم حمل القلم، يخوض بحار الكلمة، يترنّم بها في بعض الأحيان شعراً، ويتصدّى بها حيناً آخر لتيّارٍ في الأدب أو نهجٍ في الشعر غريب، فيوسعه بقلمه نقداً صريحاً، في شجاعة المدافع عن الحق، وثقة العالم المتمكن من علمه.

لقد جاهد جهاد الأدباء المخلصين، أصحاب العطاء المتجدّد والرائع، وعلى شطآن مجلته «المنهل» تربى الكثير من الأدباء السعوديين وغير السعوديين... فكانت النافذة الأولى المفتوحة التي يطلّ منها الأدب السعودي في وقت مبكرّ على البلاد العربية... والجسر المتين الذي يربط الحاضر بالماضي، ويوثّق الصّلة بين أبناء لغة الضّاد.

كما تعدّ مجلته «المنهل»، من المصادر الأساسيّة في دراسة الأدب في قلب الجزيرة العربية، ولا سيّما في العصر الحديث، لما لها ولصاحبها من دورٍ في تنشيط حركة الفكر والأدب.

وكان الأنصاريّ واحداً من روّاد الأدب السعودي القلائل الذين أسهموا، وكانوا موسوعة أدبيّة متحركة، فقد كان مدرسة ورابطة أدبية، راحت تنتشل من بين الرّكام كلّ فكرٍ عصفت به رياح الهدم.

كما كان للأنصاري فضل السبق في فتح الباب للفنّ الرّوائي الحديث في المملكة العربية السعودية بروايته «التوأمان» ١٣٤٩هـ - ١٩٣٠م.

حيث كان رائداً من روّادها، إذ يظهر من خلال الرواية غيوراً على الشباب العربي من حيث الحفاظ على أصالته وأخلاقه ومستقبله.

أمّا مؤلّفات الأنصاري، فهي كثيرةٌ ومتنوعة وذات طابع تجديدي، وبأسلوب عربي مُبين. وإن مؤلفاته لا تهمّ أبناء المملكة العربية السعودية وحدهم، أو أبناء الأمة العربية والإسلامية فقط، بل هي مهمّة للعالم أجمع.

إنّ ما قُمْتُ به من عمل، لإلقاء الضوء على شخصية عَلَمٍ من أعلام الأدب والفكر العربي والإسلامي، يعدّ جهد المقلّ، وإضافة يسيرة لما كُتِبَ عنه، وما سيكتب

في المستقبل، كما أعتبر ذلك إضاءة مشرقة على الأدب والفكر في بقعة كريمة من بقاع وطننا العربي، نحن أحوج ما نكون للاطلاع عليها، والتعرّف إلى روّادها، لفتح النوافذ الثقافية بين أرجاء الوطن العربي وأبنائه الكرام...

والله نسأل حسن البداية والختام والقصد.

أكرم جميل قُنْبُس

الشّارقة: في ١٤/ صفر/ ١٤١٤هـ

٣ / آب/ ١٩٩٣م

الباب الأوّل

الفصل الأوّل

١ـ سيرته الذاتية:

عبد القدوس الأنصاري، رجلٌ معتدل القامة، أقرب إلى الطول منه إلى القصر، معتدل الجسم، أقرب إلى النّحافة منه إلى الامتلاء، شديد اسمرار الوجه، عالي الجبين، واسع العينين، عظيم الشفتين[٢].

ولد المؤرّخ والكاتب السعودي، الأديب الباحث عبد القدوس القاسم الأنصاري بالمدينة المنوّرة عام ١٣٢٤هـ. كان والده يعمل مدرّساً بالحرم الشريف، وقد توفي ـ رحمه الله ـ بينما ترك عبد القدوس في الخامسة من عمره.

وقد تلقى تعليمه في المسجد النّبوي الشريف على يد «خاله» العلاّمة الشيخ «محمد الطّيب الأنصاريّ» ـ رحمه الله ـ حيث كفله وربّاه (وتزوّج وأنجب وهو في بيته). وقد حفظ القرآن الكريم، وبعدها دخل مدرسة العلوم الشرعيّة في المدينة المنوّرة حيث كان شيخه المذكور رئيس مدرّسيها، وكان ذلك عام ١٣٤١هـ، فأكمل دراسته العالية فيها، وحاز على شهادته العليا منها سنة ١٣٤٦هـ.

وبعد تخرُّجه، عُيّن بوظيفة مأمورية أوراق ديوان إمارة المدينة المنوّرة، ثُمَّ رُقيّ إلى عمل وظيفة مأمور أوراق، وعيّنَ نائباً لرئيس سكرتير مجلس الإدارة، وسكرتير للجنة تسوية الديون، ولجنة الإسعاف الطبي، ولجنة الصدقات، فأستاذاً للأدب العربي بمدرسة العلوم الشرعيّة، ثمّ معاوناً لرئيس الديوان بالمدينة. ثمّ انتقل إلى مكّة المكرّمة عندما صدر الأمر الملكي برقيّاً من جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ـ رحمه الله ـ إلى سمّو نائبه ـ إذ ذاك ـ الأمير فيصل بن عبد العزيز ـ بنقل عبد القدوس الأنصاري لتحرير جريدة «أمّ

٢ محمد علي مغربي ـ مقال في صحيفة المدينة /عدد/ ٥ـ٨/ ١٤٠٣هـ.

القرى» الحكومية، ثمّ نُقل بأمر سمو الأمير فيصل بن عبد العزيز النائب العام لجلالة الملك إلى ديوان سموّه.

وقد تقلّد في الديوان مناصب عدة: منها: سكرتير مجلس الوكلاء، فمدير شؤون المشاريع والأنظمة للدولة، فمدير الشؤون المالية للمملكة بالديوان، فمستشار بديوان رئاسة مجلس الوزراء، وفي أثناء ذلك عيّن عضواً بمجلس المعارف في عهد الشيخ «محمد بن مانع» مدير المعارف العام الناهض بها لِتُؤَهَّلَ أن تصبح وزارة معارف ـ رحمه اللّه ـ وقد ساهم في العديد من المؤتمرات واللجان الحكومية، وانتدب إلى الرياض في عهد المغفور له مؤسس المملكة لتنظيم شؤون التابعيّات والإحصائيات والإقامة لسكان مدينة الرياض، على رأس هيئة مختارة من مختلف الوزارات والدوائر الرئيسة.

وبعد ذلك تفرّغ لأعماله، ولمجلة «المنهل» التي أصدرها عام ١٣٥٥هـ، ولمؤلّفاته وكتاباته، وهو عضوٌ في المجمع اللغوي بالعراق، وقد حاز على براءة رائد من روّاد الأدب في المملكة العربية السعودية من جامعة الملك عبد العزيز «بجدة»، ومنح ميدالية ذهبية.

له أحاديث في الإذاعة والتلفزيون السعودي، والإذاعة المصرية. وهو منشئ نادي «الحفل الأدبي» للشباب العربي السعودي بالمدينة المنوّرة، وكان ذلك سنة ١٣٥٥هـ، هادفاً من وراء ذلك إلى تفتيح الأذهان وترقية مستوى البيان العربي (وقد اشترك معه في تأسيس هذا النادي زملاء آخرون).

له إرثٌ ثقافي وفكريّ ضخم يتمثّل في مجلة «المنهل» الثقافيّة الشهرية بالإضافة إلى رصيد من الكتب التاريخية والثقافية التي تُرجم بعضها إلى لُغات أخرى.

وقد ذكر الأستاذ «فهد محمد النّحاس» في صحيفة المربد ـ ١٤٠٣/٧/٥هـ: أن للشيخ الأنصاري دوراً هاماً في الدعوة إلى إنشاء جائزة الملك فيصل الخيرية، حيث يقول: «كان للأنصاري فضل السّبق للدعوة لمثل هذه الجائزة قبل ما يزيد عن الثماني سنوات، وقد جاءت هذه الدعوة كاقتراح لمجلة المنهل في عددها /جزء (١) السنة ٣٥ المجلد ٣ محرّم ١٣٨٩هـ... دافِعُهُ لهذا الاقتراح، حُبُّهُ للعلم والعلماء، ولتكون بمثابة الحثّ على البحث، وجزاءً لهم على ما قدّموه من جهد وعطاء»[٣].

---

٣ فهد محمد النحاس ـ مقال في صحيفة المربد /٥ـ٧/ ١٤٠٣هـ.

وإننا نرى أن هذه الجائزة اليوم ـ أصبح لها مكانتها العالميّة، واستطاعت استقطاب الاهتمام المتزايد من العلماء والأدباء في العالم كافّةً، لما تقدّمه هذه المؤسسة من خلال هدفها لخدمة العلم والعلماء في العالم الإسلامي خاصة والأسرة الإنسانية عامة.[٤]

٤ الترجمة الذاتية للأنصاري (مجموعة أوراق متفرقة أعدها الأنصاري قبل وفاته وهي معدّة على مرحلتين حرر الأول منها بتاريخ ١٣٩٩/٥/١٥هـ ـــ وحرر الثاني بتاريخ ١٣٩٩/٦/٥هـ.

٢ـ قالوا في الأنصاري:

كتب «عبد المجيد شبكشي» يقول:

«لقد فقد أدبنا المعاصر عَلَماً من أبرز أعلامه، ورائداً من خيرة روّاده، هو أستاذنا الشيخ «عبد القدوس الأنصاري»، الذي ترك من آثاره الأدبية وتصويباته اللغوية وتحقيقاته التاريخية ما أثرى المكتبة المحليّة، فكانت هذه الآثار، وستظلّ من أوثق المراجع، وأصدق المصادر التي يرجع إليها، ويستعين بها الباحثون والدارسون، فيما يتناولونه من شؤون الأدب وفقه اللغة وحقائق التاريخ».[٥]

وكتب «عبد اللّه بن خميس» يقول:

«لقد كان أديباً أعطى للأدب كل ما يمكن أن يعطي له، فألّف فيه عدداً كبيراً من المؤلّفات، ونظم الشعر فأجاد نظمه، واشتغل بالصحافة وأخلص لها غاية الإخلاص، وعاشت مجلته، وأصبحت دائرة معارف في خدمة البلاد والعقيدة والدين والمجتمع، وفي خدمة الأدب، ولم يبق مجال من المجالات التي تخطر على البال، إلاّ وتناولته هذه الصحيفة، ولا شك أن رصيد هذه المجلة الأدبي يعدّ كنزاً وذخراً من مدخرات هذه البلاد ونفائسها التي نعتز بها، ونرى فيها منتهى ما يمكن أن تصل إليه مجلة. ولقد مرّت عليه ظروف مالية قاسية مع غيرها من الظروف التي تمرّ على مثله، ولكنه صبر وصابر وجاهد في سبيل حياته، وهي ظروف لا يصبر عليها إلا مثل «عبد القدوس»، ولم يقتصر ـ رحمه اللّه ـ على هذه المجلة، وما تعطيه وأعطته لهذه البلاد، بل كان مخلصاً لفنّه وللتراث بمؤلفاته العديدة التي حفلت بالقوّة والرّصانة والمتانة. رحمك اللّه يا عبد القدوس الأديب النابه، والصحفي الناجح، والعالم المخلص...».[٦]

وقال فيه أيضاً: «عرفت فيه جوانب خلقية متعددة كلّها سمحة، وكلّها مثاليّة: وكلّها ترمز إلى الحقّ وفي الحقّ صحب الرجل في رحلة أدبيّة إلى «عمّان». فكان رجلاً مثالياً سمحاً خلوقاً، وقد جمعتنا به عدة اجتماعات أدبيّة هنالك، وكان ملء السمع

---

٥ عبد المجيد شبكشي ـ مقال في صحيفة المدينة ـ العدد /٥٨٦٠/ ١٤٠٣/٦/٢٦هـ.

٦ عبد اللّه بن خميس ـ عكاظ /٢٤ـ٦/ ١٤٠٣هـ.

والبصر، وكان خير من يمثّل بلاده، وخير من يعطي وجهاً حقيقيّاً عنها في أدبه وسلوكه واستقامته...»[٧]

وكتب الأستاذ الأديب «محمد حسين زيدان» يقول:

«لقد تركت وفاته دمعة أسى وحزنٍ في نفوس مَنْ عاصروه، وعاشوا حياته الفكرية والثقافية... له جهد كبير، حيث أقامَ لنفسه بناء رجلٍ نُكبره، أحاطه الشيخ «محمد الطيب الأنصاري» إحاطة الوالد بالولد، وأحاط «عبد القدوس» نفسه برجالٍ صادقهم فصدقوا معه، كان الوفيّ لهم، وكانوا المحتفين به، تقاربت ثقافتنا مورداً، واختلفت فيما أصدرناه، هو يحافظ على القديم أكثر منّي، كان لا يجامل، ولكن لا يتحامل، فالجفوة منه صمت لا تُلحق الأذى، والصفوة منه متعة تجلو القذى...».[٨]

وكتب «محمد عمر العامودي» يقول:

«كان على خصامٍ دائم مع المصطلحات الأجنبية والرموز الدخيلة، وإذا كان «سيبويه» ـ كما يروى ـ مات وفي نفسه شيء من حتى، فالأستاذ «عبد القدوس» مات وفي نفسه شيء من أشياء كثيرة، يرى أنها اخترقت جدار اللغة العربية، فقد كان لا يروقه أن تستعمل كلمة (تليفون) مع وجود كلمة هاتف في اللغة العربيّة.

كان حبّه للغة العربيّة تعصُّباً، وتعنصره للأدب العربيّ كبيراً. حتى إنه كان يقول: إن الأدب العربيّ وحده يغنينا عن الأدب الغربي...

وكانت تحرجني معاملته الرقيقة وأدبه الجم، فإذا صدر له كتاب جديد حمله بنفسه إلى منزلي ليقدّمه لي، وإذا دعا إلى وليمة جاء بنفسه ليبلغني إياها. لقد كان الأمير «ماجد بن عبد العزيز» على حقٍّ، حين قال لي يوم وفاته: «لقد شعرت بحزنٍ كبيرٍ لفقده... لقد كان وقاره يبهرني، وكانت أخلاقه تأسرني...».[٩]

وكتب «عبد الرحمن محمد الأنصاري» يقول:

---

٧ عبد الله بن خميس ـ الجزيرة ١٤٠٣/٦/٢٦هـ.

٨ محمد حسين زيدان ـ عطاظ ١٤٠٣/٦/٢٤هـ.

٩ محمد عمر العامودي ـ المدينة ١٤٠٣/٦/٣٠/هـ.

«... لقد اتجه الأستاذ عبد القدوس الأنصاري في حياته بشهادة أقرانه ولداته ـ اتجاهاً أقلّ ما يمكن وصفه به: الوضوح والطهر، والصفاء، والأخذ بمبدأ اطلب العلم من المهد إلى اللّحد... وقد توّج ذلك كلّه بعفّة النفس واللسان وحسن المعشر...»[١٠]

وكتبت د. «فاتنة أمين شاكر» تقول:

«شتان الفارق بينكم وبيننا، بين جيلكم وجيلنا، فأنتم أعمدة بناء. أنتم حياة متواصلة من العزيمة والكفاءة والعطاء. أنتم ـ أيّها العلاّمة الجليل ـ جمعتم بين روح الأدب وفكر العلم. فوجدت في أعمالك إثراءً ما بعده إثراء. بفكر العلم حرصْتَ على تصوير ملامح حياتنا الفكرية والأدبيّة والجغرافية والاجتماعيّة. ولم تكن بمجرّد (سائح) يحمل آلة تصوير. بل كنت عيناً متفحصة، وفكراً مشدوداً لمستقبل، عرفت جيّداً، أنه سيحتاج يوماً ما إلى معرفة شاملة عن ملامح لمجتمعه، وشحّها الحاضر برداء النسيان...».[١١]

وكتب السيد «علي حافظ» يقول:

«... كان «عبد القدوس الأنصاري» من أوفى الناس وأطيبهم خُلقاً، وأوسعهم علماً وأدباً. ومن أعمق الناس لغةً، وأنضجهم فكراً وقلماً. وكان ديِّناً مستقيم التصرّفات والخطوات، لا يغشّ ولا يؤذي، ولا يضرّ ولا يلغو، ولا يلهو، وكان عصاميّاً، شقّ طريقه إلى المجد في الحياة بعون اللّه ثم بجهده وعرقه، وعلمه وأدبه وجهاده وكفاحه. وكان أديباً متمكّناً، رضع الأدب منذ صباه، وتضلّع وشبع من لبانه، فتفجّرت عنه ينابيعه...».[١٢]

وكتب «صالح سليمان الوشمي» يقول:

«إن « لعبد القدّوس الأنصاري» ـ رحمه اللّه ـ بل لمدرسته... آثاراً عميقة وحيدة الصّلة في نفوس أرباب الكلمة، وأصحاب القلم، فهو من روّاد الأدب الأوائل في هذا البلد الطيب... ومنهله العذب مشرع لكل الرّواد... فقد أخلص الإخلاص كلّه

---

١٠ عبد الرحمن محمد الأنصاري ـ المدينة ١٤٠٣/٦/٢٨هـ.

١١ د. فاتنة أمين شاكر ـ الرياض ١٤٠٣/٦/٢٩هـ.

١٢ السيد: علي حافظ ـ الشرق الأوسط ١٤٠٣/٧/٥هـ.

لمهنته... مهنة القلم الشريف، حيث أدرك عمق التأثير، وضرورة الحاجة لمثل هذه المجلة. فمنذ عام ١٣٥٥هـ، حيث أنشأ وأسّس مجلة المنهل... وهو يقف بإخلاص صادق... وجهدٍ متفانٍ حتى وافاه أجله ـ رحمه الله ـ في عام ١٤٠٣هـ...».[١٣]

وكتب «محمد بن أحمد العقيلي» يقول:

«... إنّ عبد القدّوس الأنصاري علمٌ من أعلام التاريخ والأدب واللغة في مملكتنا العتيدة، سيحفظ التاريخ اسمه في مقدمة أعلامها الخالدين وشخصياتها البارزين...».[١٤]

وكتب «سمير عطيّة» يقول:

«إن صاحب مجلّة «المنهل» سيبقى بيننا بما أخرجه للوطن من بحوث وَكُتُب، وما قدَّمه من رعايةٍ لأجيال متعاقبةٍ، وسيبقى بصفة خاصّة أثيراً لدى مدينة «جُدَّة» التي كتب لها موسوعاتها بأجزائها الثلاثة».[١٥]

وكتب «عبد الله الحقيل» يقول:

«إن ما تركه «عبد القدوس الأنصاري» من أدبٍ وثقافة ومؤلّفات ومجلّة سيظلّ إرثاً باقياً خالداً، يشهد على ما بذله من جهد وعطاء وعمل ودأبٍ وصبرٍ... إن بلادنا فقدت بفقد الأستاذ الأنصاري أحد روّاد الثقافة والأدب الكبار الذين لهم في كل مجال من ذلك آثار نافعة...»[١٦]

وكتب «عبد الله عمر عطّار» يقول:

«رحمك الله يا شيخنا الأنصاري، كنت مثالاً للناصح الأمين... لقد تعلّمت منك حكمة الشيوخ والصّبر والتأنّي، وغبطتك على نشاطك وأنت في سنّ الثمانين، وحفظت لك حكاياتك ذات المعنى والمغزى الكبيرين، وأنت من الرعيل الأوّل في القرن الرابع عشر، عاصرت وفهمت، تعلّمت وأنتجت، وأبليت وأجدت، فرحمك اللّه يا

١٣ صالح سليمان الوشمي ـ المدينة ١٤٠٣/٧/١٩هـ.

١٤ محمد بن أحمد العقيلي ـ المدينة ١٤٠٣/٧/١١هـ.

١٥ سمير عطيّة ـ صحيفة البلاد ١٤٠٣/٦/٢٩هـ.

١٦ عبد الله الحقيل ـ الجزيرة ١٤٠٣/٦/٣٠هـ.

شيخنا، وإلى لقاء في مستقر رحمة الله عند رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها...».[١٧]

وقال عنه «فهد محمد النّحاس»:

«عبد القدوس الأنصاري عَلَمٌ من أعلام الأدب والتاريخ...».[١٨]

وكتب الدكتور «عبد الله حسن مصري» يقول:

«... الأستاذ «عبد القدوس الأنصاري» أحد كبار روّاد التاريخ والآثار، وخصوصاً آثار البقاع المقدسة».[١٩]

وكتب «عبد الإله محمد حدع» يقول:

«... كان من سماته النشاط والحركة والتفاؤل... والابتسامة تعلو شفتيه... دائماً طيّب المعشر... عذب اللسان... كريم الطباع... راقٍ في تعامله مع الآخرين، شديد في صراحته ودفاعه... حديثه لا يملّ... وتسترسل في حديثك معه من الثقافة والأدب فلا تكل... يحكيك كفاحه وجهاده في طريق البحث والتأليف الشاقّين، فتجد أمامك مدرسة فيها من العلوم ما يشدّك إليه، ويجذبك لحديثه...».[٢٠]

وكتب «عاصم حمدان علي» يقول:

«... لقد مات الأستاذ الأنصاري، وبموته تنطوي صفحة من صفحات الجهاد العلمي في بلادنا. إنّ العلاّمة «عبد القدوس الأنصاري» ـ رحمه الله ـ لثمرة من ثمرات تلك المدارس الفكريّة، التي قامت دعائمها في رحاب مسجد الرسول ـ صلى الله عليه وسلّم ـ قبل أكثر من نصف قرن. ولعل أشهر تلك المدارس هي المدرسة التي نهل من مواردها، وارتبط بأصولها فقيدنا الراحل... ولقد أخرج لنا فقيد الفكر طوال عمره المتميّز بالمثابرة.والكفاح بحوثاً متعددة في حياتنا الفكرية والأدبيّة...».[٢١]

---

١٧ عبد الله عمر عطّار ـ ص٤ الملف الخاص بما كُتب في الأنصاري.

١٨ فهد محمد النحاس ـ المربد ـ ١٤٠٣/٧/٥هـ.

١٩ د. عبد الله حسن مصري ـ من مقدمة كتاب آثار المملكة العربية السعودية ـ إعداد وإصدار مدير إدارة الآثار والمتاحف التابعة لوزارة المعارف ـ ص٤ ـ طبعة سنة ١٣٩٥هـ.

٢٠ عبد الإله محمد حدع ـ المدينة ١٤٠٣/٧/١٩هـ.

٢١ عاصم حمدان علي ـ المدينة ١٤٠٣/٧/٢٢هـ.

الفصل الثاني

١- النشاط العلمي:

شارك الشيخ الأنصاري في مؤتمرات علمية وأدبية، منها المؤتمر الأوّل للأدباء السعوديين المنعقد من لَدُنِ جامعة الملك عبد العزيز بمكّة. وفي الندوتين العالميّتين بجامعة الرياض عن تاريخ الجزيرة العربيّة قبل الإسلام وفي الإسلام.

وفي مؤتمر أسبوع الشيخ «محمد بن عبد الوهّاب» بجامعة الإمام «محمد بن سعود» الإسلاميّة بالرياض. كما ألقى عدة محاضرات وأحاديث منوّعة في الإذاعة السعودية والتلفزيون السعودي. وفي الأندية الثقافية والأدبية بمكّة المكرّمة وجدّة والقصيم والطائف وحازان. وله إسهام في النّشر بالعديد من الصحف والمجلاّت السعوديّة، وفي صحافة ومجلات مصر وسورية. وأحاديث منوّعة في إذاعة قَطَر والمملكة الأردنيّة الهاشميّة والمغرب العربي وغيرها.

وكان عضواً في لجنة تسمية شوارع جدّة وأحيائها في عهد جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز ـ رحمه الله...

٢- ثقافته واطلاعه:

كان عبد القدوس الأنصاريّ واسع الاطلاع على الكتب قديمها وحديثها، وكان يخصّ الكتب القديمة منها بكثير من اهتمامه، ولعل ذلك يعود إلى وَلَعِهِ بالتاريخ والآثار. والمتتبع لمؤلفاته المطبوعة وآثاره المنشورة يدرك سعة اطلاعه وعظيم معرفته. إذ إن عبد القدوس الأنصاري لم يكتف بما تلّقاه من العلوم في حلقات الشيخ «**الطيب الأنصاري**»

بالمسجد النبوي الشريف، ولا بما تعلّمه في مدرسة العلوم الشرعيّة. فلقد كان محبّاً للقـراءة منذ نشأته، فأكبّ على ما كان يصل على يديه من كُتب الأدب والشعر، قديمه وحديثه، يقرأ ويحفظ ويتحدّث إلى زملاء دراسته وأصدقاء صباه في كل هذا الذي يصل إليه.

ولقد كانت حلقة قريبه وكافله الشـيخ «الطيـب الأنصـاري» تضـمّ الكثير مـن شباب المدينة الذين لمعت أسماؤهم فيما بعد، وكان من زملائه في حلقة الشيخ «ضيـاء الدين رجب» والسيد «عبيـد مدنـي» والأسـتاذ «عبـد الحميـد عنبر» رحمهـم اللّـه... ومعالي الشيخ «محمد الحركان» والأستاذ «عبد الحق نقشبندي» وغيرهم...

كانت قراءات «عبد القدوس» الأولى تجعل الأدب القديم هو القدوة التـي يحـذو حذوها، ولكنّ صلته بصديق صباه وزميله في حلقة الشيخ «الطيب الأنصـاري» السـيد «عبيد مدني» ـ رحمه اللّه ـ قد فتحت له المجال للاطـلاع علـى الأدب الحديـث، فقـرأ دواوين شوقي وحافظ والزهاوي وسامي البارودي.

كما قرأ مؤلّفات المنفلوطي والرافعي، فتفتّحت أمامه الآفاق ليسلك هذا الطريـق الجديد، وكان لتشجيع صديقه السيد «عبيد مدني» ـ رحمـه اللّـه ـ أكـبر الأثـر في هـذا المنحى الذي عاد على كليهما بالخير والنجاح.[٢٢]

٣ـ منهجيته:

يلاحظ أن الأستاذ الأنصاري كان يهتّم بالمنهج العلمي في بحوثه، فمثلا يقول في مقدمة كتاب «تاريخ مدينة جُدَّة»:

أما بعد: «فهذا كتاب «تاريخ جُدّة» قُمْتُ بتأليفه، وعانيت في اسـتنباط بحوثـه، واستقراء حقائقه، رجاء أن يكون أوّل تاريخ من نوعه...»

ويقول: «وقد أقدمت على هذا التأليف، وأنا عليمٌ بما سـيتحمّله مـن يُعنـى بمثـل هذه البحوث المفقودة، أو شبه المفقودة أو المتناثرة إلى بعض...».

وليس فقط هذا هو المطلوب من الباحث، ولكن كيف له أن يهضم كل هذا في عقله ليصوغه بالأسلوب الجميل الشيّق الذي يجذب القارئ له، فيعطيه ما يريد من جرعات علميّة

٢٢ محمد علي مغربي ـ المدينة ٥/٨/١٤٠٣هـ.

وفكريّة بلا إرهاق أو عَنَتٍ مع الوضوح وحُسْن العَرْضِ وفي هذا يقول الأنصاري:

«هذا إلى ما يتطلّبه الموقف من حُسْن العرض، وجمال الأسلوب، ووضوحه، وبناء هيكل للكتاب بشكلٍ منسّق جذّاب».

وفي كتاب «تاريخ مدينة جُدَّة» تظهر مقدرة الأستاذ الأنصاري الشموليّة في الإلمام بكل نواحي الحياة المختلفة وأنواعها. وكيف أن هذه الأنواع المنفصلة بعضها عن بعض من احتماع وتاريخ وجغرافيا، وصحة، وعمران، تتكامل لتعطي لنا علماً كونيّاً واحداً يدلنا على عمق الحياة والقدرة القادرة على استيعاب كل هذا في عقل واحد، وبصورة منظمة ومرتبة... ويالروعة العقل الإنساني واتساعه.

ففي هذا الكتاب: الوضع الجغرافي ـ التطوّر العمراني ـ أصل التسمية وصحتها ـ بين الشعبية وجدّة ـ دلائل قدم جدّة ـ في مرآة التاريخ ـ بين الهامة في تاريخ مدينة جدّة ـ قصة الماء «الاستشهاد بقصائد الشعراء مثل أبي الطيب المتنبي» ـ التعليم ـ المجتمع ـ العادات والتقاليد ـ الكيان الاقتصادي ـ الحكام ـ العلماء ـ الدينيون ـ التشكيلات الحكوميّة ـ التمثيل القنصلي والسياسي ـ البلدية ومشروعاتها ـ المساجد ـ الفنادق ـ الصناعة ـ التجارة ـ الطباعة والمطابع ـ الصحف ـ أحياء الشوارع والأسواق ـ المنتزهات ـ ضوء على الأدب القديم ـ الأدباء المعاصرون ـ النباتات ـ الأسماك.

وقد أوردنا ما جاء بالكتاب حتى يلمس القارئ بنفسه مدى قدرة هذا الرجل على الاستيعاب والبحث في هذه الأنواع كلّها، التي تخصّص في كل واحدة منها علماء لهم قدرهم. ولا نملك إلاّ أن نشهد له بالموسوعيّة والقدرة الفذة على المثابرة والتحصيل.[٢٣]

إنّ منهج الأنصاري يعتمد على التحرّي والدقّة والأمانة والخُلُق الرفيع.

٤ـ أمانته العلميّة:

ونحن نعاني في هذه الأيّام من ازدياد السّرقات الأدبيّة والفكريّة، والنقل غير الأمين، بخلاف الترجمات والنقل مع انتسابها لغير أهلها من بعض الأكاديميين، يخرج علينا «عبد القدوس الأنصاري» بِمَثَلٍ يُحتذى في الأمانة العلمية، فيقول:

---

٢٣ تاج الدين محمد تاج الدين ـ المربد ٥/٧/١٤٠٣هـ.

«واتبعت طريقة إيراد المراجع والمصادر في هوامش الصفحات موّضحاً في أغلب الأحيان اسم المؤلف والصفحة وطبعة المصدر الذي استقيت منه، إن كان مطبوعاً، وبلد المطبعة، وتاريخ الطبع... وإذا كان المرجع مخطوطاً ذكرت ذلك مع بيان صفحته وتاريخ كتابته ومكان وجود هذه النسخة، ليسهل الرجوع إليها، وإذا كان المصدر شخصاً فإنّي أنتقي «الموثوق بهم» من الأشخاص، وأُسند إليهم ما رووه لي. وإذا كان المرجع يعود إلى تتبعي الشخصي، ذكرت ذلك، ولا يخفى ما في هذا السّبيل من أداء الأمانة العلميّة...».[٢٤]

إذاً: لا بدّ لكل باحث أو أديب، يُعنى بتاريخ هذا العصر، ويترجم لرجاله، أو يبحث في الأدب أو الشّعر فيه، من أن يتخذ آثار ومؤلفات العلاّمة الشيخ «عبد القدوس الأنصاري» مرجعاً له، فلقد خطّ طوال حياته العامرة ما يغني كل باحثٍ من بحوث أدبيةٍ وتاريخيّة وتراجم ومعارف أخرى ذات قيمة علمية فائقة، اتّسمت بالدّقة والإيجاز والتركيز والعلمانية، وأوفى كل دراسة حقّها من البحث والاستقصاء، وأشبع كل موضوع طَرَقَهُ، ثمّ أضفى على ذلك كله جمال العرض، وصاغه ببراعة الحاذق لفنه، المتمكّن من علمه، فاتّسم ما كتب بجمال الأسلوب والعرض وروعة البيان، بعيداً عن الصناعة والتقليد أو السماجة والتكلّف، فاستحقّ بذلك الإشادة والتقدير والشكر وحسن الثناء لما ترك لأبناء العروبة من صروحٍ شادها بقلمه، ومن آثار، أحيا بها تراث العربيّة، وخلّد بها مجد الآباء والأجداد.[٢٥]

٥ـ دوره في التاليف:

يُعَدُّ ـ الرجل ـ عبد القدوس الأنصاري، بين أقرانه، موسوعة في الأدب والتاريخ، وله في هذا السبيل عشرات المؤلّفات في اللغة والأدب والاجتماع والتاريخ، ويتميّز بولعه الشديد بكتابة التاريخ. وهو لا يكتب التاريخ من فراغ، وإنما يكتب التاريخ لتخليد المدن والأمم والرجال الأعلام.

٢٤ المرجع السابق.

٢٥ حسين حسون ـ المدينة ـ العدد ٥٨٦١، ٢٧ جمادى الثانية ١٤٠٣هـ.

ويعتمد في إصدار مؤلفاته التاريخيّة على النشاط والجَلَدِ المستمرّين وقراءة المصادر الهامة لاستخلاص الوثائق والمعلومات مدعّمة بالحقائق الثابتة.

وَكُتُبُه في التاريخ موثوق بها لاحتوائها على الكنوز المفيدة، لاسيّما كنوز التراث... وقد كسبت شهرة أدبية وعلميّة لدى بعض المستشرقين الذين ترجموا بعض كُتُبه التاريخية التي تتحدّث عن التراث العربي والإسلامي...

حتى أصبحت هذه الترجمات التي قام بها المستشرقون معروفة في بعض الجامعات في أوروبا وأمريكا بالإضافة إلى اقتنائها في أشهر المكتبات في هولندا وألمانيا وبالأخصّ في مكتبات لندن وباريس وواشنطن.[٢٦]

---

٢٦ محمود عارف ـ عكاظ ١٤٠٣/٧/٨هـ.

الفصل الثالث

الأنصاري بين الأصالة والمعاصرة

-١-

في منتصف القرن الهجريّ الماضي، حينما طغت في شرقنا العربيّ تلك الموجة الزاخرة من المدارس الفكريّة المتعددة، وغدت تتصارع مطارحةً ونقداً وبناءً وإضافةً، سالكة مسارات الأدب والنقد والفلسفة والشّعر كلها، يستلهم بعضها تراث الأجداد، يمجّده، فينفض عنه غبار القرون، ويستوحيه أو يقلّده. بينما يرفض البعض ذلك كلّه، ويعمل جهده لهدمه، حتى يبني على أنقاضه الحديث من العلوم، فلا يلبث ذلك الحديث أن يتعرّض للهجوم والنقد والنقض انتصاراً للقديم.

حينما ظهرت تلك المدارس الفكرية المتصارعة المتميزة كل واحدة منها عن الأخرى باتجاهاتها المحدودة بنظريات روّادها، المتميّز ـ أيضاً ـ الواحد منهم عن الآخر بشخصيته الفكرية والأدبية أو الفلسفيّة ذات الطابع المحدد، وبأسلوبه وبنهجه المميز الواضح والصريح.

وحين اختار كل أديب وكل مثقف لنفسه إطاراً من تلك الأُطر، وارتضى لنفسه مدرسة أو نهجاً أو اتجاهاً فكريّاً، انحاز له، فتكوّنت الجماعات الفكريّة المتعددة، وأخذ أفرادها ينهلون من مبادئها وعلومها، وسع طاقاتهم، وغاية جهدهم، وبقدر استعداداتهم الفكرية والعقليّة، وانقسمت بعض تلك المدارس، وانشقت على نفسها، وتفرّعت، وتعدّدت، وأخذ يزاحم بعضها بعضاً اتفاقاً واختلافاً، تقارباً وتبايناً، ونهجت تلك المدارس في عرض فكرها، أسلوب الحرف والكلمة، فكانت لكلّ مدرسة إصداراتها من الكتب، بل ومجلّة دوريّة... وجمهور كبيرٌ من المؤيدين والمشجعين لمنهجها وأسسها وقواعدها...

ومسيرة الأستاذ الأنصاري بدأت وانتهت باستيعابه للثقافة الإسلاميّة التي انطبعت في ذهنه، ولا بدّ أنّ ذلك كان بتأثير دراسته في المسجد النّبوي، وتتلمذه على يد العلاّمة الشيخ «محمد الطّيب الأنصاري»... فكان بحقّ يمثّل الأدب الإسلامي بخلاف أدبائنا المعدودين من الروّاد الأوائل الذين لم يهتمّوا بهذا الجانب، وإنّما انغمسوا في بحوث وكتابات، أنستهم واجبهم نحو هذه الأمانة العظمى.

وعُرف عن الأستاذ الأنصاري أنّه زامل الأستاذ «عبيد مدني» وتأثّر به... وقد خطا معه الخطوات الأولى نحو تحديث الأدب بالمدينة المنوّرة منذ عام ١٣٣٩هـ... وحين مباشرته للتدريس في مدرسة العلوم الشرعيّة كان من روّاد ناديها الأدبي، وكان صاحب فكرة (الحفل الأدبي للشباب العربي السّعودي المتعلّم) الذي عرف بهذا الاسم إذ ذاك، وكانت له أيادٍ بيضاء تهدف إلى بثّ الرّوح الإسلاميّة في معظم كتاباته.

والمعروف عن الأستاذ الأنصاريّ أنه كتب في الصحافة العربيّة في مختلف أصنافها (حرّر في مجلة المرشد العربي التي كانت تصدر في «حلب»، فكتب فيها مقالات عن اللغة العربية، وحرّر في مجلة الشرق الأدنى سنة ١٣٤٥هـ بعنوان: بماذا ينهض العرب، وحرّر في المقتطف والسياسة الأسبوعية والرسالة... وعمل في حقل إحياء الأدب العربي الفصيح، وإحياء اللغة العربيّة في دواوين الحكومة بما كان ينشره في جريدة صوت الحجاز وأمّ القرى والمنهل في تصحيح الكلمات السائرة على ألسنة الأقلام في الدواوين خاصة وفي الكتب والمقالات الأدبية عامة).

وقد كان الأنصاري مهتمّاً بشؤون ومشكلات العالم الإسلامي الملحّة، وكان يعالجها بقلمه منددّاً بالاستعمار السياسي والاقتصادي والاجتماعي، حيث يقول:

(والمهمّ في الأمر الآن بالنسبة للعرب والمسلمين الذين نراهم اليوم، يحاولون جاهدين التخلّص من براثن الاستعمار السياسي والاقتصادي والاجتماعي، والمهمّ أن يدركوا مقدّماً أن مخالب الاستعمار الثقافي أشدّ ضراوة، وأعنف فتكاً، وذلك لأنه يشتمل على عمليتي غسل وملء وتجريد لأدمغة طلابه من أبنائنا من كلّ مفاخر الحضارة الإسلاميّة الخالدة ومزاياها، وملئها بكل مقوّمات الحضارة العربيّة ومفاخرها الأصيلة والمستوردة على أنّها كلّها غربيّة أصيلة وعريقة، وذلك لكي **يظلّ الشرق الإسلامي ذيلاً تابعاً** للغرب مهما ظلّ يتعملق أو يتفتح وعيه أو يتقدّم.

ولعلّ الدواء الناجع الذي بوسعه أن يقينا من مضاعفات خطر الغزو الثقافي الذي يطوّقنا اليوم، يقف في سبيل تقدّمنا كالأفعى الهائجة، يكمن أن نقوم ويقوم العالم الإسلامي بهجوم مضادٍّ كاسح لحركة الاستعراب والاستغراب الثقافي...

ثمّ بيّن ـ رحمه الله ـ دور الوعي وضرورة فتح الجامعات، وتعميم الثقافة الإسلاميّة وتحصيلها، وهو قولٌ حق. وهل أصيب العرب اليوم إلا بعد أن تخلّوا عن منهج الثقافة الإسلاميّة المستمدّة من عقيدتنا السمحة، وهي التي غيّرت وجه التاريخ، وأنارت للبشرية طريق الخلاص، وأهدت إلى العالم أرقى ما يحلم به الإنسان من حضارة ومدنيّة.

ومن الاتجاهات المحمودة لدى الأستاذ الأنصاري، اهتمامه بأدب الرحلات، وتصدّيه للبحوث الأثرية، وهو يعتبر ذلك رياضة للجسم والرّوح معاً.

وقد صدر له كتب عدة في هذا المجال، يُضاف إلى ذلك أن الرحلات الأدبيّة، كما يقول: (تثري معلومات الرّحالة العامة والخاصّة بالنسبة لحياة الأمم وآثارهم وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية).

وهي بالفعل مميزات يمكن أن يقدّمها الكاتب إلى القرّاء بأسلوب يبيّن فيه دوافع الرحلة ومقدماتها ونتائجها.

والأستاذ الأنصاري ـ رحمه الله ـ كان يميل إلى هذا النوع من الكتابة ويهتّم به. وتعدّ مجلته المنهل مصدراً رئيسيّاً لمقالاته العديدة التي كتبها عن مواقع زارها وتحدّث عنها.

ويعدّ الأنصاري من جيل الروّاد، وقد ذكر الدكتور «محمد عبد المنعم خفاجي»، أن الأنصاريّ (من روّاد الأدب الحجازي الحديث ودعاة التجديد فيه... أديب عالم مؤلّف باحث، أثّر في الفكر الحجازيّ والعربيّ تأثيراً كبيراً...).

والواقع أن الأستاذ الأنصاريّ، قد عايش تطوّر الأدب في مراحله الأولى، ولا سيّما بعد الحرب العالميّة الثانية. حينما بدأت أصوات أدبيّة من مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة تدعو إلى تصدير الأدب السعودي إلى الخارج وكان يعقد لقاءات ومناظرات في مجلته مع أصحاب القلم، وكانت أمّ القرى وصوت الحجاز والمنهل والمدينة تنقل بواكير هذا التطلّع، ثمّ امتدّ هذا الشعور، فانتقل إلى الرّياض بواسطة مجلة «اليمامة» وإلى المنطقة الشرقيّة بواسطة أخبار الظهران.

ويتميّز أسلوب الأنصاريّ باليسر والسهولة وبجمال التصوير والعرض والقدر المعقول من الألوان الزاهية، واتّساق التعبير وشمول الإحاطة.

أما مؤلفاته فتعدّ موسوعة أدبيّة وتاريخيّة.[٢٧]

٢٧ اعتمدنا في الجزء الثاني من هذا الفصل على ما جاء في مقال الأستاذ عبد الرحمن عبد الكريم العبيد في /المربد/ ٥/٧/١٤٠٣هـ.

الفصل الرابع

مجلة المنهل

تعدّ مجلة «المنهل» من أقدم المجلاّت العربيّة، والتي قام بإنشائها ـ المغفور له ـ عبد القدوس الأنصاري عام ١٣٥٥هـ. فهو مؤسّسها ورئيس تحريرها، وهي مجلّة شهريّة للآداب والعلوم، تؤرّخ عمله الفكريّ المتواصل، وجهوده الأدبيّة الموفقة، والتي أثرت المكتبة العربيّة بمواضيعها المختلفة، والتي كانت وما تزال تدعم روح الأخوّة الإسلاميّة، كما أنّها تعدّ دائرة معارف قائمة بذاتها لما تضمنته من مواضيع شتّى، تبحث في الإسلام والثقافة والبحوث اللغوية والشعر والنقد الأدبي، والقصص والطرائف والتربية وعلم النّفس.[٢٨]

لقد برزت مجلة المنهل «سفينة محمّلة» بكل مقوّمات الفكر، تشقّ ذلك الخضمّ الزاخر، تعبر في ثقة وثبات وسط التيارات الفكرية المتعددة، والاتجاهات الفلسفيّة المتباينة وهي عامرة بكلّ غذاءٍ فكريّ، وأدب لباب، تحمل في دفتيها فكر أدباء الحجاز، وتفسح المجال في صفحاتها لكل صاحب رأيٍ رصين وفكر سديد.

ويقول الأستاذ محمود عارف: «ومع ارتباط الأنصاري بالوظيفة كان من عشّاق الكلمة، وملهمة عشقه في مسيرته الأدبيّة هي مجلة «المنهل» وفي «طيبة» ولد المنهل ١٣٥٥هـ، وكان المولود سعيداً باحتضان أبٍ حنون، أصبح فيما بعد عاشقاً للكلمة، مفتوناً بالحرف... ومن أجل بقاء «المنهل» وتدعيم حياته في تاريخ الكلمة، انتقل عبد القدوس الأنصاري من «طيبة» إلى «مكّة» ونضج في «جُدَّة» وهذا دليلٌ واضحٌ على مراحل تطوير المنهل، وعلى صدق عزيمة الأنصاري، وتفانيه في أداء رسالته الأدبية،

٢٨ فهد محمد النحاس ـ المربد ١٤٠٣/٧/٥هـ.

كمؤرّخ وكاتب وشاعر. وبعد مرور عدة سنوات، من وجود المنهل في مكة، انتقل «الأنصاريّ» ومعه «المنهل» إلى «جدّة» وأنشأ له فيها دارة للسكنى، ومكتباً للمنهل، وفي «جدّة» حيث المجتمع التجاري الصاخب بالأعمال والحركة والتسويق للتجارة، ارتفع «المنهل» من السطح إلى الذروة بحكم التداول والانتشار.[٢٩]

إن مجلة المنهل جامعة علمية وسجلٌ تاريخي، ومدرسة فكرية، وإنّ صاحبها جعل المال في خدمة العلم، ولم يجعل العلم في خدمة المال.[٣٠]

وأبرز ما في حياة الأنصاري كلّها، الحب، فقد كان محبّاً، عاشقاً، متيمّاً، مغرماً، ولهانَ، لا يطيق فراق محبوبته، ولا لحظة واحدة. كان يجري وراءها من بلد إلى بلد، ومن حارة إلى حارة، ومن دار إلى دار، ويقبّل ذا الجدار وذا الجدار، ليعانقها ويضمّها ويشمّها ويستمتع بعبيرها. كان يخلص لها الحبّ، وكان يضحّي في سبيلها بكل ما يملك من مال وحياة، وجهد وشباب، وظلّ وفيّاً لها حتى آخر لحظة في حياته. وكان وهو في عنفوان مرضه وشدّته ـ إذا صحا ـ يسأل عنها، ويوصي بها، ويحنو عليها، وكانت محبوبته تبادله حبّاً بحب، وغراماً بغرام، وتقدّر حبه وتضحياته، وتنقاد له طائعة. فمن هي محبوبته هذه؟ إنها «مجلة المنهل».[٣١]

مع كل شهر، كان ميلاد «المنهل» يمثّل ميلاداً جديداً لأستاذها الأنصاريّ، فقد كان يحرص على أن يكون «المنهل» بوتقة تنصهر فيها كل الأفكار العربية الإسلاميّة، البنّاءة لمفكرين وأساتذة عرب، فصارت «المنهل» مع كل مطلع هلال عنواناً أخّاذاً للفكر الجاد الملتزم، ورؤية شاملة لمعنى الكلمة الصادقة، لمفكّرٍ وَهَبَ نفسه كلّها، لخدمة وطنه من خلال الكلمة والرؤية الصادقة.

وظلت المنهل مشعلاً دائماً، وظلّ الأنصاريّ وقود هذا المشعل، حيث امتدت «المنهل» تحمل الكلمة المميزة والرأي السّديد والفكر الشامل.[٣٢]

---

٢٩ محمود عارف ـ البلاد ١٤٠٣/٧/٦هـ.

٣٠ عبد الله سلامة الجهني ـ المدينة ١٤٠٣/٧/١٢هـ.

٣١ السيد علي حافظ ـ الشرق الأوسط ١٤٠٣/٧/٥هـ.

٣٢ محمد الوزان ـ البلاد ١٤٠٣/٧/٢٦هـ.

وقد تربّى على شطآن «المنهل» العذب الكثير من الأدباء السعوديين وغير السعوديين... فكانت مجلته «المنهل» النافذة الأولى المفتوحة التي يطلّ منها الأدب السعودي في وقت مبكّر على البلاد العربيّة... والجسر المتين الذي يربط الحاضر بالماضي... يوثّق الصلة بين أبناء لغة الضّاد... وكانت المنهل السجلّ الحافل بأدب وأدباء المملكة العربية السعودية... فلم تنحرف بتيّار التحديد. ولم تبق على قيود الماضي... بل مثّلت الحاضر بتعقّل الماضي - إن جاز هذا التعبير -.[٣٣]

وكانت «المنهل» أوّل مجلة أدبيّة سعودية، انتشرت خارج المملكة، كما تعدّ من المصادر الأساسية في دراسة الأدب في قلب الجزيرة العربية، ولا سيّما في العصر الحديث.[٣٤]

وإنّها لتعدّ مرجعاً مهمّاً لتاريخ الحركة الأدبيّة في المملكة، كما تمثّل قطاعاً من تاريخ الحركة الأدبية العربية بصفةٍ عامة، ولا يستطيع أيّ باحث أن يكتب عن هاتين الحركتين دون أن يرجع إلى مجموعات المنهل، وإلا لكان بحثه ناقصاً مبتوراً.[٣٥]

وإنّ أعداد مجلة المنهل تعدّ مرجعاً هاماً لكثير من الشخصيات والمباحث، بما تضمّه بين جوانبها من كنوز الثقافة[٣٦]، فلقد بلغت رسالتها كل ديار العروبة والإسلام، وَعَرَف عن طريقها رجال الفكر والعلماء ورجال الجامعات والمعاهد العلميّة العليا والمنتديات الأدبيّة في المملكة العربيّة السعودية أدباً حديثاً وأدباء وشعراء وصحافة وحركة فكرية.[٣٧]

٣٣ صالح سليمان الوشمي - المدينة ١٩/٧/١٤٠٣هـ.
٣٤ عبد الرحمن عبد الكريم عبيد - المربد ٥/٧/١٤٠٣هـ.
٣٥ عبد العزيز الرفاعي - البلاد ٢٧/٦/١٤٠٣هـ.
٣٦ محمد علي مغربي - المدينة ٥/٨/١٤٠٣هـ.
٣٧ مصطفى حسين عطار - المدينة ٥/٧/١٤٠٣هـ.

الفصل الخامس

١ـ دَوْرُ الأنصاري في الحركة الثقافيّة والأدبيّة

قام «عبد القدوس الأنصاريّ» ومجلته «المنهل» بتنشيط حركة الفكر والأدب السعودي، وهذا الدّور سجلته أقلام وألسنة كثير من الأدباء والعلماء السعوديين وغيرهم في الصحف والمجلاّت والكتب والإذاعة والتلفزيون.

فقد استطاع الأنصاريّ أن يخرج الأدب السعودي من المحليّة إلى النطاق الإقليمي والإسلامي، فكان من روّاد الأدب السعودي القلائل الذين أسهموا، وكانوا موسوعة أدبية متحركة.

٢ـ الأنصاريّ من جيل الصدق والالتزام

يقول الأستاذ «مصطفى حسين عطّار»:[٣٨]

«... إنّ جيل الأستاذ عبد القدوس الأنصاريّ، يمثّل القمّة في الخلق والوفاء والمروءة ونظافة اللسان ولين الجانب، والتواضع والالتزام برسالة الكلمة، وما تفرضه على المرء من الترفّع عن الصغائر والتحلّي بمكارم الأخلاق... بحيث يفرضون عليك أن تتخذهم قدوة ومثالاً... في علمهم وأدبهم وفضلهم ودأبهم في طلب العلم... ودقّتهم في أدائهم لعلمهم.. وصدق ودادهم وولائهم لولي الأمر... وتلقين ذلك لجيلهم ومن يخلفهم، شأنهم في ذلك شأن أعلام السلف، ويتفاوتون في ذلك تفاوت الرجال في الهمم، وفي طلب العلم والعمل به. وأشهد للّه أن شيخنا الجليل، عبد القدوس يأتي في الذروة من أولئك الروّاد فحينما نتتبع سيرة حياته العمليّة نجدها كُلّها جَدًّا ودأباً على

٣٨ مصطفى حسين عطار ـ المدينة ٥/٧/١٤٠٣هـ.

التحصيل... وإصراراً على بلوغ القمّة والدقة والجديّة... وكان بحمد اللّه مردود ذلك ما رأيناه من الشخصيّة السّويّة ذات السّمات البارزة في العلم والفضل، فهو أشبه في العلم بالموسوعة الضخمة الحيّة وبالحديقة الفينانة التي تحوي كلّ ما لذّ وطاب... فهو الأديب الذي تطوّع له القلم حتى بلغ به الأسلوب الأدبي مرتبة قادة الأدب في القديم والحديث.

وهو في العلم والآثار والبحث اللغوي، أحد أئمة اللغة والبحث في العالم العربي والإسلامي، بل ونكاد نعتبره هو والعلاّمة الجليل الشيخ (محمد بن بليهد) والعلاّمة الباحث السيّد (أمين مدني) والعلاّمة المؤرّخ الشيخ (حمد الجاسر) من قادة العلم في هذا الميدان باعتراف الكثيرين من خارج بلادنا.

وفي الصحافة، هو شيخ من شيوخها، ورائد من أفضل روّادها... وإن من يقرأ بدايته مع الصحافة، حينما بدأ يفكّر في أن يوجد صحافة في بلده ـ المدينة المنوّرة ـ بمنهله العذب، يدرك إلى أيّ مدى كان هذا الشاب مثل شباب جيله، جيل العزيمة والالتزام برسالة الصحافة وبرسالة الكلمة... وإلاّ تصوّر شاباً يحيا في المدينة المنوّرة عام ١٣٤٩هـ، يعيش على الكفاف، وفي وظيفة حكوميّة متواضعة، يبلغ به طموحه أن يكتب للمقام السّامي مستأذناً في إصدار مجلّة أدبية... ولقد كافأه اللّه على نيّاته الطّيبة وآماله الواسعة، فقد يسّر اللّه أمر المنهل، وصدرت موافقة الملك الإمام «عبد العزيز» ـ رحمّة اللّه عليه رحمة الأئمة الأبرار ـ بصدور المنهل... وَطُبعت أعداد منها بمطابع جريدة المدينة المنوّرة، لصاحبيْها رائديْ الصحافة السّيدين الجليلين «علي وعثمان حافظ»، ولقد تدرّجت في فقراتها الصحفيّة حتى بلغت الذروة التي أشبعت طموحات وآمال شباب المدينة بموافقة أديب مكّة ومفكّرها وصاحب الأيادي البيض على الأدب والأدباء الأستاذ «محمد سعيد عبد المقصود» مدير مطبعة الحكومة آنذاك... على طبع ـ منهل ـ عبد القدوس الأنصاريّ في مطبعة الحكومة بمكّة المكرّمة...».

٣ـ الرّابطة الأدبيّة:

من بداية تأسيس «المنهل» في المدينة المنوّرة، تعرّف الأستاذ «عبد القدوس الأنصاريّ» في حال حياته على كثير من الكتّاب والشعراء، بعضهم من ...

والبعض الآخر من الخارج، وله من أترابه في «طيبة» صفوة ممن اشتركوا معه في تركيز الرابطة الأدبية في بلادنا. وبعض هؤلاء ممن انتقل إلى الرفيق الأعلى، والبعض حيٌّ يُرزق. ومن الأدباء الذين دخلوا في رحمة الله، السّادة: عبيد مدني وضياء الدين رجب، ومن مكة: أحمد بن إبراهيم الغزاوي، وممن يعتز بصداقتهم في مكة وجدّة وجازان: أمين مدني ومحمد حسين زيدان وعزيز ضياء وعبد الله السعد وحسين محمد نصيف وأحمد قنديل ومحمد علي مغربي ومحمد علي السنوسي ومحمد العقيلي وعلي حافظ وعثمان حافظ ومحمد حسن فقي ومحمد سعيد العامودي وحسين عرب وأحمد علي وغيث البلادي وأحمد عبد الغفور عطار، ومن الرياض حمد الجاسر وعبد الله بن خميس... وكلّ هؤلاء أصدقاء أوفياء يقرؤون مجلته، وكُتُبه بعناية واهتمام... ومعظم هؤلاء الأدباء يجسدون اهتماماتهم بنشر آثارهم العلمية في مجلته المنهل، حيث كانت هي المجلة الشهريّة الوحيدة قبل صدور «المجلّة العربيّة» و «الفيصل» و «الدارة» وحيث كانت تُعنى بتكوين رابطة أدبية بين مجموعة الرعيل الأوّل.[٣٩]

٤ـ النّقد الأدبي في حياة الأنصاريّ

كَتَب الأستاذ «أحمد المحمد الصّائغ» يقول:[٤٠]

كَتَب الأستاذ «محمّد الوزان» في جريدة «البلاد» يوم السبت ١٤٠٣/٦/٢٦هـ، كلمة استعرض فيها بعض ملامح شخصية الفقيد العزيز الأستاذ «عبد القدوس الأنصاريّ» ـ رحمه الله ـ وقد استوقفني قول الكاتب عن الفقيد: «وكان شيخنا قبل سنوات قد أصدر ديواناً أطلق عليه ـ الأنصاريات ـ وجاء من يهمس في أذنه أنّ «العوّاد»[٤١] سيقوم بتشريح الديوان ليثبت للآخرين أنك لست في مستواه شعرياً، وعلى الفور قام شيخنا بجمع ما تبقّى من الديوان من المكتبات خوفاً من نقد العوّاد».

---

٣٩ محمود عارف ـ عكاظ ١٤٠٣/٧/٨هـ.

٤٠ أحمد المحمد الصائغ ـ البلاد ١٤٠٣/٧/٣هـ.

٤١ العوّاد، هو الشاعر محمد حسن عوّاد.

وهذا القول، يبعث على الأسف والاستغراب، ولست أدري كيف استساغ الكاتب إقحام هذا القول في معرض رثاء الفقيد الأستاذ «الأنصاري» لأنّ المناسبة لا تسمح بطرح مثل هذا القول أو الزّعم الذي لا يستند إلى دليل. وما ذكره الكاتب يتنافى كليّاً مع ما عُرف عن الفقيد الأستاذ «الأنصاريّ» من الشجاعة الأدبية والمقدرة على التصدّي لأيّ ناقدٍ بما عُرف عنه من غزارة العلم ودقة البحث ونصاعة البيان وقد كانت للأستاذ الأنصاريّ ـ رحمه الله ـ صولاتٌ وجولات في ميدان النقد مع العديد من أقطاب الفكر والقلم.

فكيف يستقيم القول: إنه سحب باقي نُسَخ ديوانه خوفاً من نَقْد «العوّاد»؟ ومقولة الكاتب تنقض نفسها بنفسها، حيث يقول: إنه بادر إلى سحب باقي نُسَخ الديوان من المكتبات، وعبارة (باقي النّسخ) تعني أن أغلبها قد تمَّ توزيعه على القرّاء، وفي هذه الحالة ينتفي سبب سحب باقي النُّسخ لأنّ ما تمَّ توزيعه أصبح في متناول الجميع. ومنهم «العوّاد».

مع العلم أن الأستاذ «الأنصاريّ» ـ رحمه الله ـ اعتاد على إهداء نُسَخ خاصّة من مؤلفاته إلى رجالات العلم والأدب قبل توزيعها على المكتبات، و«العواد» من كبار الأدباء الذين يصلهم إهداء المؤلّفات.

وقد كان الأستاذ «الأنصاريّ» في طليعة المؤيدين للنّقد الهادف البنّاء، وقد خصّص باباً ثابتاً للنقد في مجلته «المنهل» وكان ينشر ضمنه ما يبديه الكُتّاب والقُرّاء من ملاحظات وآراء في مختلف النواحي العلمية والأدبيّة، وكثيراً ما يشمل ذلك مؤلفاته وأبحاثه، شخصيّاً، ويردّ على النّقد الذي يوجّه إليه بأسلوب العالم والأديب المتمكّن الذي يقدّر رسالة النقد الهادف البنّاء.

وأذكر أنه قبل عشر سنوات، كتبت مقالاً تناولت فيه مواد أحد أعداد «المنهل» وبعد نشر المقال في «المنهل» تلقّيت رسالة من الأستاذ الأنصاريّ بخط يده ما زلت أحتفظ بها، يحثّني فيها على متابعة كتابة الملاحظات رغبةً منه ـ رحمه الله ــ في التعرّف على جوانب النقص وتلافيها. فهل بعد هذا، يُقال عن رجلٍ هذه نظرته إلى النقد بأنه يخشى النقد إلى الحدّ الذي صوّره «الوزان»؟.

الحقيقة: إن الأستاذ الأنصاريّ - رحمه اللّه - لم يكن يخشى نقد «العوّاد» أو غيره، بل كان يتحاور مع كل ناقد يستهدف البناء والإصلاح، وقد تقبّل ما كُتب عن بعض مؤلفاته بكل رحابة صدر، وفي الوقت نفسه، لا يُحابي أو يجامل في سبيل الدفاع عن الحقّ، ومثالنا على ذلك أنه حين تصدّى «العوّاد» - رحمه اللّه - للانتقاص من شخصيّة وشاعرية الشاعر العربي «أحمد شوقي» اتخذ الأستاذ الأنصاريّ، الموقف الذي تمليه عليه المبادئ التي التزم بها طوال حياته الأدبيّة، ففسح المجال في «المنهل» للأقلام المنصفة للدفاع عن شخصية ومكانة شوقي.

وهكذا: فمقولة «الوزّان» تتنافى مع الحقيقة والشواهد الثابتة، ومقولة كهذه لا يليق أن تلتصق بصفحات التاريخ المشرّف للأستاذ الأنصاريّ.

وفي لقاء للأستاذ «سعيد مصلح السُّريحي» مع الأستاذ الأنصاريّ، نتلمّس رأي الأنصاريّ ذاته في النقد الأدبي، حينما أجابه عن سؤاله حول حركة النقد، فقال المرحوم الأنصاريّ:[٤٢]

«آسف جدّاً، إذا قلت لك، إن النقد عندنا قد اتجه في بدء نشأته اتجاهاً غير موفّق، كان نقداً شخصيّاً هدّاماً للأشخاص، وليس للموضوعات، وهذا الاتجاه سار بقوّةٍ إلى ما بعد الستينات، وتأثّر النقد بهذه الشخصيّات، وهذه المهاترات، مما جعله حتى الآن راكداً، وحاول محدثكم منذ ما تمرّس في الأدب أن يوجّه النقد وجهةً أخرى غير هذه الوجهة التي لا تُجدي، وقد تجلب أضراراً كبيرة للمجتمع، وتوجد حزازة بين الأفراد، ولا تفيد قضية الأدب، ولا تقدّمه بأي شيء. وقد حاولت عند إنشاء مجلة المنهل أن يكون اتجاه النقد فيها اتجاهاً قويّاً سديداً لنقد الناقد الموضوع لا الواضع، المكتوب لا الكاتب، والشّعر لا الشاعر، وعلى هذا سارت مجلّة «المنهل» في العهد الأوّل، لاقت اعتراضاً شديداً من النافدين وغير الناقدين. كيف تتجه هذا الاتجاه البارد؟

قالوا: إنّ النّقد الضروريّ للأدب أن ننقد الشخصيّات، وتقوم المهاترات على قدم وساق، حتى يحمى الأدب، وتروج الصحيفة، فيشتهر الكاتب، ويشتهر الناقد. قلت لهم، لا، سيكون اتجاه النقد عندي اتجاهاً آخر. نقد الموضوع لا الواضع،

---

٤٢ سعيد مصلح السُّريحي - البلاد ١٤٠٣/٨/٤هـ.

والمكتوب لا الكاتب. ونحمد الله سبحانه وتعالى فإن هذه الفكرة في آخر الأمر نجحت واتجه أكثر النقّاد عندنا بعد لأيٍ طويل، وبعدما كادت الفرصة تفوت إلى هذا الاتجاه الذي ينقد الموضوع، ويتجنّب شخصيّة المنقود... وموضوع النقد مهمّ جدّاً، لرفع مستوى الأدب... النقد يحتاج إلى أن يكون الناقد أعلم بكثير ممن ينقده فيما ينقده، وأوسع دائرة اطلاع، وأوسع دائرة بحثٍ، هنالك يكون النقد صحيحاً. فهل الناقدون عندنا، الذين ينتقدون الأدباء الكبار والصغار في مستوى من ينتقدون؟ هل هم أعلم منهم؟ هذا سؤال يحتاج إلى رأيٍ سديد، فإذا قلنا: إنّهم أقلّ ممن ينتقدون، أو هم في مستواهم، فالنقد بطبيعة الحال لن يكون ذلك النقد الهادف البنّاء...».

أما رأي الأنصاريّ في حركة التجديد في الشعر العربي (الشعر الحر) فيقول:

«موقفي مما يسمى بالشعر الحر، معروف، فأنا لا أُسمّي هذا شعراً، هذا أشبه بالخُنثى، هو خُنثى الأدب، ليس شعراً، ولا نثراً، هو هُراءٌ في هراء...».[٤٣]

وحول رسالة الأديب، يقول الأستاذ الأنصاريّ:

«رسالة الأديب لأمته، هي رسالة التوجيه الفكري والإصلاح الاجتماعي، التوجيه الفكري، بتثقيف العقل، وترقية مستوى الفكر. والإصلاح الاجتماعي إصلاح الشؤون الاجتماعية على قَدْر حدود الأدب، فلا تتجاوز تلك الحدود إلى مشاكل لا يستطيع الأدب لها حملاً، ولا تثمر شيئاً...».[٤٤]

٥ـ رسالة الصحافة الإسلامية في مفهوم الأنصاريّ

يقول الأستاذ الأنصاريّ في حوارٍ مع الأستاذ «عبد الكريم نيازي» عن دور الصحافة الإسلاميّة:[٤٥] «الصحافة الإسلاميّة تختلف عن الصحافة العالمية الحاضرة. فالصحافة العالميّة الحاضرة... صحافة تؤمن بالخبر... دون أن تراعي فيه الحق أو الخير أو المصلحة العليا... وهي صحافة غير ملتزمة إلا بالمنبع... أو المصلحة الذاتية... وهي مصلحة النّاشر أو مصلحة

٤٣ المرجع السابق.

٤٤ المرجع السابق.

٤٥ انظر مقال ـ عبد الكريم نيازي ـ اليوم ١٤٠٣/٧/٥هـ.

من يلتقي معه في حدود معينة... ومن أجل تحقيق أهداف خاصة.

الصحافة الإسلاميّة هي صحافة ذات مبدأ... وذاتُ التزام بالقيم والعقائد والمُثل والمبادئ والخوف من اللّه سبحانه وتعالى... وهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمصلحة العليا... ومصلحة الإنسان كإنسانٍ لا يجوز معها الغش والخداع والمكر والإيذاء والإضرار بالغير، وظلم الناس، وما شابه ذلك مما يكون أحياناً في الصحافة العالمية الحاضرة التي تسعى في سبيل المنافع... ولا تراعي حقّاً أو عدلاً... ولا ترعى مصلحةً أو خيراً... الصحافة الإسلاميّة مطالبة اليوم بأن تؤدي رسالتها كاملةً في تحريك الهمم... وإيقاظ المشاعر القوميّة لكي تهبّ الشعوب الإسلاميّة، وتحرّر أرضها، وتتمسّك بعقيدتها وحقوقها... يجب على الصحافة الإسلاميّة أن تنادي بالوحدة الإسلاميّة... والتضامن الإسلامي وتحرير الأرض والمقدسات... يجب على الصحافة الإسلاميّة أن تنادي فوراً بالسّلام، وتؤدّي رسالتها لإجلاء الغاصب المحتل من لبنان... ولاسترجاع الأرض المغتصبة وتحرير القدس الشريف والمقدسات الإسلاميّة في فلسطين والمسجد الأقصى، وتحرير الأرض العربية المغتصبة، والوقوف في مواجهة العدو... يجب تحقيق مبدأ الوفاق والمصالحة الوطنية بين أبناء الشعب الواحد... يجب على الصحافة الإسلاميّة أن تؤدّي رسالتها... والالتزام بالقضايا القومية العليا... والارتباط بمبادئ الحق والعدل والحريّة والكرامة للإنسانية جمعاء... ولخير الإنسان في كل زمان ومكان».

لقد عاش المرحوم الأنصاريّ كل قضايا الأدب بفكره ووجدانه، وخاض ميادينها، وغاص في بحورها، وبحث في خباياها وأسرارها بعقلية موسوعية متعددة المناحي. تجود فلا يبخل على العلم بعطائها الثر. فهو دوماً ثرُّ العطاء، سخيٌّ، جوادٌ بعلمه، وفكره، ونتاج قريحته.

فلقد راض قلمه، وطوّعه بالكلمة الرصينة البليغة لخدمة الفكر الإنساني، حيثما وجد مجالاً لذلك. فمنذ أن عرف في فجر حياته، لم تفتر عزيمته في السّعي وراء الحقيقة بالبحث المضني، والتحقّق الدقيق. فلقد تسربل وشاح المعرفة، وائتزر الأدب، والتحف العلم، ثم حمل القلم يخوض بحور الكلمة. يترنّم بها في بعض الأحيان شعراً، ويتصدّى

بها حيناً آخر لتيّار في الأدب أو نهجٍ في الشعر غريبٍ، فيوسعه بقلمه نقداً صريحاً في شجاعة المدافع عن الحقّ، وثقة العالم المتمكن من علمه.[٤٦]

٤٦ حسين حسون ـ المدينة ٢٤/٦/١٤٠٣هـ.

الفصل السادس

رحلة بين مؤلّفات الأنصاريّ

إن رحلة عبر مؤلفات الأنصاريّ ـ رحمه اللّه ـ التي قام بتأليفها، تدل دلالة واضحةً على عمق فكره، وعلى صبره وجهده المضني في سبيل الوصول إلى الحقيقة التي يجهلها الكثيرون، خاصّة في مجال الآثار، فإن وصفه الدقيق، لا يعتمد المشاهدة فقط، بل يتعدّى ذلك باستعماله حواسّه وحدسه كاستعماله لقلمه، فهو يقيس المساحات والأبعاد، ويعتمد العلم في وصفه وأسلوبه، وتبويب كتبه.

ونتعرّف على الكتب التي ألّفها الأنصاريّ من خلال بيان خاص، أعدّه بنفسه قبل وفاته، قال عنه: (البيان رقم (١) بالكتب التي ألّفتها)، وذيّلها بمكان وزمان كتابة البيان (جدّة في ١٣٩٩/٦/٥هـ) ووقّع تحته بخط يده. وها نحن نورد مؤلّفاته كما أثبتها، وسوف نورد لمحة عامة عن بعض هذه المؤلّفات، لأن بعضها الآخر لم يصلنا، وبعضها ما يزال مخطوطاً.

المؤلّفات:[٤٧]

١ـ ما صدر من مؤلفاته خلال حياته:

١ ـ التوأمان (بقية) صورة عن الطبعة الأولى النافذة بمطبعة الترّقي بدمشق سنة ١٣٤٩هـ ـ ١٩٣٠م.

٢ ـ إصلاحات في لغة الكتابة والأدب (صورة من الطبعة الأولى النافذة بمطبعة الوفاء البيروتيّة سنة ١٣٥٢هـ.

٤٧ من الملف الخاص بحياة الأنصاريّ.

٣ ـ آثار المدينة المنوّرة ـ صدرت طبعته الأولى سنة ١٣٥٣هـ وطبعته الثانية في سنة ١٣٧٨هـ والثالثة في سنة ١٣٩٣هـ.

٤ ـ كتاب «بناة العلم في الحجاز الحديث ـ الجزء الأوّل» صدر بالقاهرة من مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م.

٥ ـ كتاب (تحقيق أمكنة في الحجاز وتهامة) صدر في سنة ١٣٧٩هـ من مطابع دار الأصفهاني بجدّة.

٦ ـ الكتاب الفضّي لمحلة المنهل ـ صدر من مطابع الأصفهاني بجدّة سنة ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م.

٧ ـ كتاب «تاريخ مدينة جدّة» صدر من مطابع الأصفهاني بجدّة سنة ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م.

٨ ـ ديوان «الأنصاريّات» صدر من مطبعة الوفاء ببيروت سنة ١٣٨٤هـ.

٩ ـ «التحقيقات المعدة بحتميّة ضم جيم جُدَّة» صدر من مطابع الأصفهاني بجدّة سنة ١٣٨٥ ـ ١٩٦٥م.

١٠ ـ كتاب «تاريخ العين العزيزية بجدّة ولمحات من مصادر المياه بالمملكة العربية السعودية ـ صدر من مطابع دار العلم للملايين ببيروت سنة ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م (الطبعة العربية الأولى).

١١ ـ كتاب (أيّام مع شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي) صدر في سنة ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م من مطابع دار العلم ببيروت ـ لبنان.

١٢ ـ كتاب (بين التاريخ والآثار) صدرت طبعته الأولى بمطابع دار العلم للملايين ببيروت سنة ١٣٩١هـ، والطبعة الثانية بالمطابع نفسها... والثالثة بمطابع الروضة بجدّة سنة ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

١٣ ـ (كتاب بنو سليم) صدرت طبعته الأولى من مطابع دار العلم للملايين ببيروت سنة ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

١٤ ـ كتاب (تاريخ العين العزيزية ولمحات عن مصادر المياه بالمملكة العربية السعودية

- صدرت الطبعة الانكليزية منه الأولى من مطابع دار العلم للملايين سنة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

١٥ - كتاب «الملك عبد العزيز في مرآة الشعر» صدرت طبعته الأولى من مطابع الندورة بمكة المكرّمة سنة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

١٦ - كتاب «مع ابن جُبير في رحلته» صدرت طبعته الأولى من المطبعة العربية الحديثة بالقاهرة سنة ١٣٩٦هـ - ١٩٧٧م.

١٧ - كتاب «رحلة في كتاب من التراث» صدرت الطبعة الأولى منه من مطابع الروضة بجدّة عن «المكتبة الصغيرة» للأستاذ عبد العزيز الرفاعي. وطبع طبعة ثانية سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

١٨- كُتيِّب (الطائف تاريخاً وحضارة ومصادر ثراء، وآثاراً وأعلاماً وعلماء وشعراء) صادر عن دار ثقيف بالطائف من مطبوعات نادي الطائف الأدبي وذلك سنة ١٣٩٨هـ.

١٩ - كتاب (طريق الهجرة النبوية)... صدر من مطابع الرّوضة بجدّة سنة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

٢٠ - كتاب (رحلة الباحة) طبع سنة ١٤٠٠هـ.

٢- ما صدر من مؤلفاته بعد وفاته:

١ - كتاب (الصيام وتفاسير الأحكام).

٢ - كتاب (مع الواضح في اللغة).

٣- مؤلّفات تحت الطبع:

١ - متقبل أبحر.

٢ - النخيل والتمّور في بلاد العرب والعالم.

٣ - كيف نشأ أدبنا الحديث.

٤ - الكتاب الفضّي للعين العزيزية.

٥ - أعلام العلم والأدب في حزيرة العرب.

٦ ـ سيرة الملك العظيم الشهيد فيصل بن عبد العزيز.

٧ ـ سيرة الشيخ محمد بن حسين نصيف ـ عالم جدّة ـ وعميد أعيانها وأمير الكتب بها...

٨ ـ أدباء المملكة العربية السعودية المعاصرون.

٩ ـ رحلة الحجاز (الميناء البحري الأوّل للمدينة المنوّرة).

ولا بدّ لنا من إلقاء الضوء على مضمون بعض هذه المؤلفات:

١ـ كتاب آثار المدينة المنوّرة:

هو أحد مؤلفاته الأولى، حيث صدرت طبعته الأولى سنة ١٣٥٣هـ. أي بعد توحيد المملكة العربية السعوديّة بعامين، وفي عهد المغفور له الملك «عبد العزيز».

وكتاب يحتوي في مثل هذه الآثار في وقت عزّت فيه المواصلات، وقلّت فيه الوسائل العلمية الحديثة لدليل على الحبّ الذي يكنّه هذا الرجل لوطنه ولأمته، ومدى التضحية، وتحمّل المشاق، ليسطّر تاريخها وآثارها. كما يدلّ على عظمة الرجال المخلصين، وفي وقت يصعب فيه البحث، وتقلّ فيه الموارد، ويعتمد الباحث فيه المشي على الأقدام. وإن القارئ للكتاب، ليلمس مد الجهود الجبّارة التي بذلت لإخراجه إلى حيّز الوجود... ومن مميزاته أنه عُني بتطبيق ما في كتاب السيرة النبوية والتاريخ على المشاهد من واقع الآثار عن طريق الفحص الشخصي للأثر في المدينة المنوّرة، والتي تعدّ من أقدم بلاد الله الواسعة، والتي بناها العمالقة الذين كانوا موجودين بها قبل التاريخ. وقد تعاقبت عليها السكان حتى جمعه أخيراً بين الأوس والخزرج[٤٨]... الذين عُرفوا

٤٨ ورد في كتاب (مع المصطفى في عصر المبحث) للدكتورة عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطئ ـ الطبعة الثالثة ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩١ ـ طبعة وزارة التربية في دولة الإمارات العربية المتحدة. وفي الصفحة ١١ من الكتاب ما يأتي:

بمزاولة الزراعة وبناء الحصون والدّور التي هي مهاجر الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك. فآثارها مشرقة منيرة منتشرة وفيرة، وهي مهد الإسلام وعاصمته الأولى التي كانت تُجبى إليها خزائن الأرض، وكانت قبلة الشعوب الإسلاميّة من شتّى الأقطار، ومصبّ وابل خيراتهم، إذا نزحت بهم الديار.

والمتمّعن في صفحات الكتاب يجد خريطة أثرية تقريبية للمدينة المنوّرة من رسم وتنفيذ المؤلّف، حيث يتبيّن أن المؤلّف قد أخذ تخطيطها من مصادر التاريخ، ولهذه الخريطة التقريبية فوائد جمّة، فهي تدل القارئ على مواقع الآثار، وتحدّدها له بصورة واضحة. كما أنه يوجد في الكتاب رسوم اكتشف بعضها لأوّل مرّة في تاريخ المدينة. فهو سجلّ خالد ومشرّف لمؤلّفه.

ولقد احتوى الكتاب موجزاً وافياً لتاريخ هذا البلد الطاهر، الذي تتجه إليه الأنظار، وتهفو إليه القلوب من أقطاب المعمورة كلّها.

وجاء تبويب الكتاب وحدة متكاملة لكل دارس وعاشق ومحب لاقتناء صفحات من حياة تاريخية لـ «طيبة» الطيبة. فقد بحث في الباب الأول الدُّورَ، والتي كان لها دور كبير في

«والرواية العربيّة تقول: إنّ سفينة نوح رست قريباً من «بابل» في موضع سُمّي «سوق الثمانين» بعدد من كانوا في السفينة الناجية من الطوفان، وقد مكثوا هناك حتى كثروا وضاقت بهم المنطقة، فتفرّقوا، واتجه بنو عبيل، أخي عاد، إلى موضع يثرب - وفي الرواية أن يثرب، اسم أحد أبناء عبيل - فنزلوا به وعمروه، ثمّ مالوا إلى موضع آخر في المنطقة، دهمهم به سيل جحفهم، فسمّي «الجحفة». وظلّت يثرب مهجورة إلى أن عمرتها قبيلة من العرب القحطانية العاربة، بعد تصدّع سدّ مأرب. هذه القبيلة العربيّة الصميمية، هي لأوس والخزرج. أخوان شقيقان، أبوهما «عمرو بن عامر» آخر ملوك سبأ قبل خرابها. وأمّهما «قيلة» التي يُنسب إليها عرب يثرب، فيقال لهم «بنو قيلة».

ونزح إخوتهم «بنو حفنة بن غسّان» إلى أرض الشام، فأسّسوا بها إمارة غسّان العربيّة. وآخرون من «جرهم» نزلوا حول مكّة، وهم الذين أصهر إليهم «إسماعيل بن إبراهيم الخليل» جدّ العرب العدنانية».

تاريخ المدينة، أمثال دار كلثوم بن الهدم، وسعد بن خشيمة، كما تناول دُورَ الصحابة والتابعين، أمثال: أبي أيوب الأنصاريّ، وعبد الله بن عُمر ودور الخلفاء الأربعة، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، ومروان بن الحكم. كما تناول بعض القصور، أمثال قصر سعيد بن العاص، وكذلك الحصون، حيث تكلّم عن حصن كعب بن الأشرف.

وكذلك المساجد، فقد أوفاها حقّها من الدراسة والبحث، وأخصّ بالذكر الفصل الخاص بالمسجد النبوي. فقد تناوله المؤلف ـ رحمه الله ـ من نواحٍ عدة: كالموقع والوصف العام، زخرفة قبابه، جداره القبلي، المحراب العثماني، والمحراب النبوي، المنبر... شرحاً وتحليلاً وافياً، وأبواب أخرى عديدة، منها: باب الأمكنة، الجبال والحرارة والأدوية والآبار، وأخيراً باب العيون.

كما قام بفك بعض الكتابات، وهي أحياناً عتيقة جدّاً، مثل التي وجدت فوق صخرة على جبل سلع، التي يمكن أن يعود تاريخها إلى زمن الخلفاء: أبي بكر وعمر بن الخطاب.

ويحتوي الكتاب العديد من الرسائل والأقوال لأساتذة ومؤرخين يشهد لهم المجتمع الأدبي بالعلم والمعرفة، تضمّنت ثناءهم على مجهودات المؤلف... فهو يمتاز بالتركيز الواضح في بحوثه وتعريفاته واستعراضه للآثار التي تحدّث عنها المؤلف، كما قاله الدكتور «محمد حسين هيكل»[٤٩].

---

٤٩ ورد في التقرير الخاص المُعَدّ من قبل المرحوم الأنصاريّ ص١٦، ما يأتي:

«... وبمناسبة ذكر الدكتور «محمد حسين هيكل» ـ رحمه الله ـ نذكر هنا أنّه اعتمد فيما كتبه في كتابه (في منزل الوحي) على صاحب الكتاب في تعريفه بآثار المدينة المنوّرة الحقّة. ونشر ذلك في كتابه المشار إليه. وأضاف إلى ذلك كلمة منه قرّظ بها الكتاب، ونصّها: «هذه الديار الإسلاميّة... حافلة بالآثار الجليلة، وقد حاولت أن أقف على كتاب يوجز منها ما يوجد بمهبط الوحي، فلم أعثر على بغيتي. فلما حضرت إلى المدينة أهداني الأستاذ عبد القدوس الأنصاري كتابه: «آثار المدينة»، وحين اطلعت على محتوياته، رأيت مهاجر النبي الكريم انفتحت أمامي مغاليق آثارها، وأصبح من اليسير تتبّعها في أماكن وجودها، وتتبّع آثارها، والأطوار التي مرّت بها من خلال هذا الكتاب

٢- كتاب: بين التاريخ والآثار

يبدو من خلال هذا الكتاب نجاح المؤلف في ربط أواصر الصلة بين مادتي التاريخ والآثار، اللتين تقدمان ثماراً ناضجة للباحثين والمستطلعين عن حقائق العصور القديمة في عصرنا الحديث، وموضوعات الكتاب لا تخرج عن دائرة البحث في بعض آثار هذه البلاد العربية، وهي السعودية، وما يقع بمشرقها مثل الكويت، وما يقع بشمالها مثل الأردن وسورية ولبنان. وهذا البحث الأثري مقرون بالبحث التاريخي المجرّد.

ويجيء الكتاب لمحصول دراسات متوالية للتاريخ والآثار، استمرّت أمداً يزيد على ثلاثين عاماً، بدأها المؤلف بالمدينة المنوّرة فمكّة المكرّمة وجدّة والطائف والرياض والخرج والدرعية وتيماء في المملكة، والبحرين والكويت والأردن وسورية ومصر ولبنان خارج المملكة. وقد عُني المؤلف بصهر دراساته هذه المتشعبة في دراسات مركّزة هادفة شاملة، وكتب أخرى منفصلة موسّعة.

ونجد التحقيقات الموفقة حول مدائن صالح وما شهدته من عمران ومدنية، وما انتهت إليه من دِمار، وما تركته من آثار ناطقة وباقية حتى الآن. وكذلك نجد التحقيق الذي تناول فيه قصّة أهل الكهف، وموقع الكهف نفسه وموطنه وصفته وماجاء من كتابات حوله.[٥٠]

وقد ذكر الدكتور «فنشنزو ستريكا»[٥١] أن كتاب «بين التاريخ والآثار» لعبد القدوس الأنصاريّ: هو أهم كُتبه الأثرية، فقد خصّص الفصل الأوّل لدراسة تاريخية أثرية

الموجز الجامع. فجزى الله السيد «عبد القدوس الأنصاريّ» عن مدينة الرسول الكريم وعن زائريها الذين يجدون في هذا الكتاب خير ما يهديهم إلى الآثار الإسلاميّة في بلد، لم يجتمع في غيره مثل هذه الآثار.

في محرّم سنة ١٣٥٥هـ - إبريل ١٩٣٦م.

التوقيع: محمد حسين هيكل».

وقد وردت هذه الرسالة في كتاب «آثار المدينة» الطبعة الثالثة.

٥٠ فهد محمد النحاس - المربد ١٤٠٣/٧/٥هـ.

٥١ من محاضرة له في روما بعنوان (عبد القدوس الأنصاريّ الباحث والمفكر) ترجمة الدكتور جلال النادي المدرس بجامعة القاهرة ـ وقد نُشرت في مجلة المنهل عدد ـ ذو الحجة ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م

لشبه الجزيرة التي يؤكّد المؤلف أنها موطن الشعوب الساميّة، وبالتالي موطن الحضارة التي نبعت في المنطقة التي تربط نجداً بالحجاز، لأنها توجد بها المعادن والظروف الملائمة للتطوّر الزراعي، ولوجود جداول المياه.

وتكلّم عن معنى كلمة «مكّة» إذ أكدّ أن مصدر الاسم هو مكّة الرب «أي بلاد الله، أي «مكوربا» أي مكان العبادة. ويلي ذلك ذكر المواقع الأثرية بتعليق تاريخي دقيق للغاية.

والجزء الخاص بالفخّار المكّي هام للغاية، لضآلة المعلومات حوله. ودراسة المباني تبدأ بمكّة التي بها العديد من المباني الأثرية التاريخية. وتوجد معلومات هامة حينما يدرس المؤلف الأماكن القريبة مثل «سوق عكاظ» الشهير بالجاهلية، والتي اكتشفت بها مجموعة من رجال الصحافة السعوديين كتابات وأطلالاً: ويلي ذلك بعض الإشارات لبعض الكتابات وآثار منطقة «بني سليم» وهي قبيلة عدنانية تبعد ١٤٠ كم عن مكّة.

ولقد وُجد نقشان هامّان يرجع أحدهما لعصر الخليفة المقتدر، وقام الأنصاريّ بدراستهما ووصفهما بأنهما خطٌ كوفيٌّ مشجّر، وهو لفظ يطلق على الكوفي «الورقي» أو «المنسّق».

ووجدت نقوش في وادي «رانوناء» كما توجد في المنطقة نفسها آثار لسدّ عتيق للغاية.

ولقد اكتشفت نقوش على الصخور، وفكّت جزئيّاً في عدة جهات على سبيل المثال في «جبل عار» التي ربطها الأنصاريّ بالأماكن التي أقام بها الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلّم ـ أثناء سيّره إلى «بدر».

ولكن أكبر الاكتشافات إثارة هي التي اكتشفت في وادي «الصويدرة» أثناء زيارة عام ١٩٦٨م. وترتبط هذه المنطقة بمنطقة «الترعة» حيث وصل بعض الصحابة أثناء معزكة أُحد.

وكانت تلك المنطقة مأهولة قبل ظهور الإسلام، كما تبيّن ذلك نقوش ثمودية ورسوم لإنسان وحيوانات. كما ظلّت هذه المنطقة مأهولة بعد الإسلام كذلك. ويثبت

ذلك عدة نقوش عربيّة، نجح الأنصاريّ بفكّها وترجمتها، وهي ذات أهمية كبرى لتاريخ الخطوط العربية.

وقد وصف أماكن أخرى ذات أهمية، نذكر منها العاصمة «الرياض» ومنطقة «الدرعيّة» القريبة منها، التي ظلّت لفترة طويلة عاصمة نجد، والتي بدأت بها الحركة الوهّابيّة. كما خصّص صفحات هامّة جداً لتاريخ وآثار منطقة عسير. وهذه المنطقة لم تدرس كثيراً قبل ذلك، وإن كانت تقع على أهمّ طرق القوافل.

كما درس الأنصاريّ آثار شمال الجزيرة العربيّة، وهي «خيبر» و«تيماء» وبالطبع «مدائن صالح» وهي أهمّ المواقع الأثريّة في البلاد.

وفي مقدمة الطبعة الأولى من هذا الكتاب، يبيّن الأنصاريّ رأيه وغرضه من هذه الدراسات التي أجراها، فيقول:

«وقد دعاني إلى اقتحام ميدان هذه البحوث العويصة التي لا يزال الغموض يكتنفها في كثير من أبعادها وحقائقها، دعاني إلى ذلك محاولة إبراز ذلك الإسهام الكبير الذي قامت به حضارة العرب في جاهلية وفي إسلام، حيال الحضارة الإنسانية الشاملة.

وإني بهذه المناسبة ـ أدعو بإخلاص وبحرارة علماء العرب والمسلمين إلى مزيد من هذه البحوث الأثرية التاريخية الكاشفة... كما أدعو أيضاً إلى تخصيص وافر الأموال والجهود والرحال للبحوث الأثرية التنقيبيّة في أعماق أرضنا المعطاء، حتى تخرج لنا من ينابيعها الثرّة كنوزها الثمينة المطمورة في باطنها..على أن نقوم نحن أيضاً بهذه المهمة العلمية... كما أدعو إلى مزيدٍ من البحث في بطون الكتب التاريخية والأثرية والعلمية والأدبية، لاستخلاص حقائق تاريخنا القديم المبعثرة...

وبعد: فإن هذه البحوث المدوّنة في هذا الكتاب، قد كنت كتبتها ونشرتها في أزمنة متفاوتة، وفي أماكن متفرقة، وفي صحف ومجلاّت وغيرها... وقد استغرقت كتابتها المتباعدة المسافات، واحداً وثلاثين عاماً... وبالتحديد، استغرقت من عام ١٣٥٦هـ = ١٩٣٦م إلى عام ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م. وحينما قررت جمعها بين دفتي كتاب واحد، لضمان الإفادة من هذا الجمع بعد التفرّق، وهذا الضمّ بعد التشتّت، راجعتها وأعملت

فيها من التعديل والتنسيق ما اقتضاه الكيان الوليد... وهذا الجهد الجديد».[٥٢]

٣ـ كتاب «تاريخ جُدَّة»:

يقع الكتاب في ستمائة وثمانين صفحة بمقدمة كتبها الشيخ «محمد نصيف»، وقد طبع في مطابع الأصفهاني في مدينة «جُدَّة» وهو كتاب موثّق ومزوّد بالخرائط يعالج فيه المؤلّف التاريخ السياسي والثقافي لجدّة في العصور الأولى إلى أيّامنا الحالية. وهناك روح حقيقيّة تدفع المؤلّف إلى ذكر كل المعلومات، كأن يذكر قائمة بالأسماك التي توجد على الشواطئ أمام المدينة. وهذه الأجزاء أكثر الأجزاء سهولة، وهي شائعة في القراءة.

ولكن هناك أجزاء أخرى مليئة بالمادة العلميّة، فهو بعد دراسة عميقة يؤكّد أن الاسم الصحيح هو «جُدَّة» (بضم الجيم) وليس جِدَّة (بكسر الجيم) كما تعطيها التسمية المحليّة. ويبدو جهد الأنصاريّ واضحاً بكل ما توصل إليه من نتائج.

٤ـ تاريخ تموين مياه العزيزية لمدينة جدّة:

نشر المؤلّف هذا الكتاب برعاية إدارة العين العزيزية في جدّة عام ١٣٨٩هـ. والكتاب هام لأنه كان مناسبة لقصائد شعرية، اشترك فيها أعظم الشعراء السعوديين، نذكر منهم على سبيل المثال: أحمد بن إبراهيم الغزاوي، وفؤاد شاكر.

وندخل هنا داخل نفسية البلاد التي يسجّلها الأنصاريّ بشاعريّة ومحبّة تجعلنا نشعر بأهمية هذا الحدث، وأبعاده القوميّة. ونعرف بالتالي كيف بدأت الأعمال المبدئيّة، وتقارير الخبراء، وكذلك الأملاك التي أوقفت لتكاليف المشروع، وعلى سبيل المثال: الأراضي القريبة من المطار، التي بنيت عليها دارٌ للحجاج، وهي مفيدة جداً في مدينة مثل «جدّة» التي ظلّت إلى عقود زمنية بسيطة سابقة تعيش تقريباً على أرباح الحج فقط.

---

٥٢ عبد القدوس الأنصاريّ ـ كتابه: بين التاريخ والآثار ص٩-١٣ ـ الطبعة الثالثة ـ جدّة مطابع الروضة ـ ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

٥ـ كتاب «بنو سليم في التاريخ»:

يمثّل الكتاب عرضاً لشريط تاريخي عن امتداد الإسلام والعروبة من مهدها إلى العالم، كما هو مدوّن على غلاف الكتاب. فالدارس لهذا الكتاب يجد أنه يعتبر شاملاً، حيث يمكن اتخاذه مرجعاً في نواحٍ عدة من التاريخ العربي والإسلامي العام، وخاصّة في تاريخ هذه القبيلة التي أسهمت في الحوادث العربيّة والإسلاميّة إسهاماً ملموساً منذ عهد الجاهليّة غير البعيدة من الإسلام، وعبر تاريخ الإسلام في المشرق والمغرب وفي الجنوب والشّمال. ثم انطفأ وهجها بعد ذلك قروناً ثمّ بدأ في الانبعاث من هنا أخيراً.

والمتتبع لفصول هذا الكتاب يرى أن الكاتب رجع إلى المراجع التاريخية، بل كان يناقش بعض الآراء، مثل مناقشته لآراء العلاّمة «عبد الرحمن بن خلدون» من خلال تاريخه «العبر». وفي مقدمته العظيمة يقول الكاتب عن ابن خلدون: إنه كان في نفسه «عقد» عميقة الجذور، حيال عرب «بني سليم» وعرب «بني هلال» الذين دخلوا شمال أفريقيا في القرن الخامس الهجري وفق ترتيب سياسي خاص.

وقد ناقش الكتاب كثيرين غير «ابن خلدون». والكتاب كما يقول مؤلفه ـ رحمه الله ـ صلة مباشرة برحلة كان قد قام بها إلى ديار «بني سليم» لاستقصاء الحقائق...

وقد عرّف الكتاب بديار بني سليم الأصلية وبديارهم الفرعيّة كما تعرّض لملاحمهم، وفلسف أسماءهم، وترجم للكثيرين من رجالهم ونسائهم، ففيه تراجم الصحابة والصحابيّات، والتابعين والتابعيّات والعلماء والشعراء والكتّاب والتجّار والأمراء والأبطال، وعن عاداتهم وتقاليدهم.

٦ـ كتاب «الملك عبد العزيز في مرآة الشّعر»:

في مقدّمة الكتاب يطرح المؤلف السؤال الآتي: لماذا اخترت هذا الموضوع «الملك عبد العزيز في مرآة الشعر»؟ ثم يجيب عن ذلك قائلاً[٥٣]: «كنت قد استعرضت

---

٥٣ كتاب: الملك عبد العزيز في مرآة الشعر ـ لعبد القدوس الأنصاريّ ص٧ ـ مؤسسة مكة للطباعة ـ ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

الموضوعات التي تضمَّنها الكتاب الذي وجّهته جامعة الملك «عبد العزيز بجدَّة» إلى الأدباء السعوديين. وكانت تلك الموضوعات قد بلغت سبعين موضوعاً، فاسترعى نظري بصفة خاصّة موضوع (الملك عبد العزيز في مرآة الشعر) وذلك أن حياتنا الحاضرة المتجدّدة المتقدّمة المتمددة هي من ثمار توفيق اللّه جلّ وعلا للملك البطل العبقري. «عبد العزيز آل سعود» الذي أسس بجهوده المملكة العربيّة السعوديّة، ثمّ وحدها في نطاق وحدة عميقة متجانسة المبادئ والأهداف والاتجاهات، مما كان إرهاصاً ميموناً قائماً لفاتحة عصر التجديد للمجد العربي والسؤدد الإسلامي، فوحّد أبناء المملكة العربيّة السّعوديّة قلباً وقالباً، كان فيها المثال الحيّ الصادق والناجح للوحدة العربيّة والإسلاميّة الشاملة... وفي عهد جلالة الملك فيصل رائدنا وقائدنا الميمون النقيبة ذي الشيمة والشكيمة العربيتين الماجدتين الماهدتين، برزت ثمار نهضة المملكة، فتصاعدت إلى قمّة الريادة العربيّة والإسلاميّة في مجالات الحياة والتقدّم المنشودين.

وحق، إن شبه الجزيرة العربية بعامة، وقلبها ورئتها بخاصة، هي المنطلق دائماً للعرب والمسلمين إلى الصّمود والصعود، والمجد والسؤدد، والعلم والقوّة...

تلك البواعث ـ مجتمعة ـ هي التي جعلتني أختار هذا الموضوع، وأرجو أن أوفّق فيما دوّنت وفيما كتبت، وما توفيقي إلا باللّه، عليه توكّلت وإليه أنيب.

هذا وقد رتّبت أسماء الشعراء جميعاً على الحروف الأبجدية... لما في ذلك من تنسيق متّبع، وتيسير للمطالعة والمراجعة...».

وقد قسّم المؤلف بحثه إلى قسمين:

أوّلهما: يشمل شعر الملامح: ويقصد به الشعر الذي يصف ويصوّر ويجسّد الشمائل والملامح والمفاخر والمآثر من (زاوية القصيدة) العربية المعروفة الأبعاد، المألوفة الجوانب والموازين، قديماً وحديثاً... من باب تسمية الكل باسم الجزء.

وثانيهما: شعر الملاحم: ويقصد به الشعر المعروف بشموله لكل من سيرة البطل الذي نظمت فيه الملحمة الشعرية، وسير أسلافه وأوضاعهم، وسير خصومه وأوضاعهم، وانتصاراته الحاسمة، وهزائمه إلى بطولات أخرى مقارنة أو مقاربة، وإلى أحداث أخرى جسام، استطاع طائر الشعر المحلّق أن يضمّها بين جناحيه، وأن يؤلّف

بينها، وأن يربط بعضها ببعض، بخيط رقيق دقيق من نسج الخيال المحلّق في سائر الأجواء المتألّقة والقائمة على السّواء.

وملموس أن القسم الأول من هذا البحث ـ وهو شعر الملامح أو القصائد العربية المعروفة قديماً هو أوفر وأكثر، فقد بلغ عدد شعراء هذا النوع من الشعر العربي الحق ـ تسعة عشر شاعراً، تسابقت جيادهم في مجالات بطولة الطّيب الذكر «عبد العزيز» في شعر عمودي عربي أصيل.

والقسم الثاني من البحث ـ وَلَحَه شاعران كبيران فحسب، وهما: خالد بن محمد الفرج صاحب ملحمة «أحسن القصص». و«بولس سلامة» صاحب «ملحمة عيد الرياض».

هذا وإنّ صيغتي «الملامح» و«الملاحم» تجمع بينهما أسلاك دقيقة وقوية ممتدة من منجم الاشتقاق الكبير.

أما منهج البحث فقد سار حسب الآتي:

١ ـ التعريف بالشاعر المختار بعض شعره تعريفاً موجزاً مركّزاً، وإبراز خصائص شاعريته في إيجاز.

٢ ـ إيراد مقتطفات مختارة من قصيدة أو قصيدتين أو ثلاث أو أربع للشاعر.

٣ ـ تحليل المقتطفات، وإبراز مراكز الجمال فيها!

٤ ـ مقارنتها بغيرها إذا اقتضى الحال ذلك.

٥ ـ تحليل مفاخر الملك عبد العزيز على ضوء المختار من الشعر الذي قيل فيه، والمدوّن في هذا البحث.

٦ ـ دعم الأبحاث بما تضمّه أُطُرها من مناسبات تاريخية وأدبيّة ولغوية واجتماعية وعمرانية واقتصادية.

٧ ـ ذكر المصادر والمراجع في هوامش الصفحات.

اخترت لك من قصائد البحث:

القصيدة «الفائيّة» [٥٤]

لخير الدين الزركلي

جرى اليمُّ هدّاراً بمضطربٍ طافِ ... تميل به الأنواء ميلة أعطاف
سماءٌ وماءٌ ليس بينهما سوى ... بناء على الأمواج قد شيد رجّاف
يطلّ عليها باسم النّجم خلسة ... ويرتدّ عنه طرفه غير مشتاف
تراءت به في صفحة اليمّ زاخراً ... حمائم بيض بين دُرّ وأصداف
فناجيت نفسي والخيال يطيف بي ... ترى أغداً في كعبة البيت تطوافي؟
أأشهد هاتيك الوجوه وقد بدا ... عليها سنا أخلاف مجد وأسلاف
هنالك من أبناء يعرب أمّةٌ ... كملتمع الحَدَّين زيِّنَ بإرهاف
حجازيّة نجديّة مُضَريّةٌ ... من الدين والدنيا لها البُرُدُ الضافي
تقدّمها (عبد العزيز) فصانها ... من الحلك المَرْئيّ والشِّرْكِ الخافي
دعا فأجابته الجموع فقادها ... فوحّد أشتاتاً وقام بأحلاف
إذا الملك لم يجمع شتاتاً ولم ينر ... سبيلاً، تداعى أو سفا ركنه سافي
أجل هذه أمّ القرى وشعابها ... وهذا (حَمام البيت) يزهى. بإرفاف
وها هي (أجياد) تطلّ على (الصَّفا) ... و(زمزم) منها يستقى كل رشّاف
بَني المِلّة الغرّاء والوطن الذي ... وقاه من الأرزاء مصقول أسياف
بنى لكم (عبد العزيز) و(آله) ... بناء المعالي فاتقوا كلّ رجّاف
ألا إنّ في (شبه الجزيرة) قوّة ... عزيز علينا أن تُرام بإضعاف
هي (المعقل) المأمون للعرب كلّهم ... هي (الموئل) المحميُّ من كلّ حَيّاف

---

٥٤ انظر القصيدة في كتاب: الملك عبد العزيز في مرآة الشعر ـ للأنصاريّ ص٣٦.

وانظرها في ديوان الزركلي ص٣٤٢ ـ الأعمال الشعرية الكاملة ـ **مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الأولى** ١٩٨٠م.

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية

براءة
تكريم الأدباء السعوديين

يسر وزير المعارف والرئيس الأعلى لجامعة الملك عبد العزيز - بناء على الصلاحيات المخولة له وبناء على المادة التاسعة والعشرين من نظام الجامعة وبعد الاطلاع على محضر مجلس الجامعة الثالث المنعقد بتاريخ ٥/٣/١٣٩٤ والمبني على توصيات اللجنة الفنية المنبثقة عن المؤتمر الأول للأدباء السعوديين لتكريم الأدباء.
أن يمنح السيد/ عبد القدوس بن القاسم الأنصاري ميدالية الاستحقاق تكريماً لجهوده وإنتاجه الفكري

والله ولي التوفيق

صدرت بمكة المكرمة في ٥/٣/١٣٩٤هـ
الموافق ٢٨/٣/١٩٧٤م

مدير الجامعة

وزير المعارف
والرئيس الأعلى للجامعة

صورة عن الشهادة

٧ـ كتاب «الصّيام وتفاسير الأحكام»

صدر هذا الكتاب بعد وفاة مؤلّفه ـ رحمه اللّه ـ وهو عبارة عن حلقات متتابعة من أحاديث الصّيام، أُلقيت بإذاعة نداء الإسلام بمكّة المكرّمة طيلة شهر رمضان المبارك عام ١٣٩١هـ. وقد رأى الأستاذ «نبيه بن عبد القدوس الأنصاريّ» أنّ من الخير أن تظهر في أثرٍ مجموع مطبوع لما تشتمل عليه من الفوائد الدينية والتاريخية والاجتماعية والفكرية، فجزاه اللّه عن والده وعن المسلمين خير الجزاء لأنه قام بعمل نبيل.

أمّا الكتاب نفسه، فقد قُسّم إلى قسمين:

القسم الأول: يشمل الصيام، ثم مقدمة قصيرة بيّنت الغرض من دفع هذا الكتاب إلى النشر، ثم جاءت قصيدة شعرية بقلم الشاعر الأستاذ «محمود عارف» تمثّل منهج الكتاب، وهي عادة وجدناها عند المرحوم الأنصاريّ، بأن يجعل قصيدة شعرية لأحد كبار الشعراء في مقدمة بعض مؤلفاته، فقد فعل هذا في كتابه «بين التاريخ والآثار».

ثم جاءت بعد ذلك كلمة بعنوان «أهلاً بك يا شهر الصيام» وهي بقلم المرحوم «عبد القدوس الأنصاريّ» ومن بعد ذلك تأتي فصول الكتاب، وهي ستة فصول مرتبة حسب الآتي:

- الصيام في اللغة والدين.
- مزايا الصوم.
- رمضان في شمائل رسول اللّه ـ صلى الله عليه وسلّم.
- من أحكام رمضان.
- مطالع رمضان في تاريخ الإسلام.
- أسمار رمضان.

وبعد الفصل السادس أُثبتت مختارات رمضانية من الشعر والنثر لعدد من الأساتذة والمختصين.

أما القسم الثاني من الكتاب فيشمل تفاسير الأحكام: وقد قدّمها المؤلف من خلال تقدمات تلاوات من الذكر الحكيم.

وهناك ملحق خاص بقرارات مجلس المجمع الفقهي الإسلامي في دورته الرابعة المنعقدة بمكّة المكرّمة (مقر الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي) في الفترة من ٧-١٧/٤/١٤٠١هـ الموافق ١١-٢١/٢/١٩٨١م.

٨ـ رواية «التوأمان»:

جاء على لسان مؤلّفها الشيخ «عبد القدوس الأنصاريّ» ـ رحمه الله ـ قوله:[٥٥]

رواية «التوأمان» على تواضعها الفني فإنّ لها مزيّة أدبية خاصّة تتمثّل في فتحها لباب كتابة الروايات في هذه المملكة العربية السعودية... إنها هي الرواية الأولى التي صدرت قبل كل رواية في المملكة العربية السعودية... إذ كان صدورها في سنة ١٣٤٩هـ ١٩٣٠م.[٥٦]

أما ملخصها فقد ورد مركّزاً في نطاق مقدمتها التي جاء فيها، توضيحاً للبواعث التي حملت كاتبها على كتابتها وإخراجها إلى حيّز المطبوعات من الكتب ما يلي:

«وبعد فغير خافٍ ما جلبته المدنية الحديثة على الشرق عامة، وعلى العالم العربي الإسلامي خاصة، من آفاتٍ فتّاكة، ودواهٍ دهياء. مما يكاد يودي ببنياننا الاجتماعي من أُسّه، ويقضي على كياننا الخلقي من رأسه.

وبدهي أن هذا الفتح الأوروبي، إنما اعتمد في توسّعه وانتشاره على سلاحين: الدعاية القلميّة والآلات الجهنميّة.

---

٥٥ كانت مجلة (عالم الكتب) قد وجهت مجموعة من الأسئلة إلى الأستاذ عبد القدوس الأنصاريّ ـ رحمه الله ـ دور كلّها حول روايته (التوأمان)، أول رواية صدرت في المملكة العربية السعودية ـ وقد شكلت إجابات المؤلف هذا المقال الوثائقي الذي نشرته (عالم الكتب) في العدد الرابع من المجلّد الأول الخاص بالقصة في المملكة العربية السعودية ـ ثم أُعيد نشر هذا الملف في صحيفة الجزيرة بتاريخ ٢٦/٦/١٤٠٣هـ وقد اقتطفنا منه ما أثبتناه.

٥٦ طُبعت الرواية في مطبعة الترقّي بدمشق ـ قيمرية سنة ١٣٤٩هـ ـ ١٩٣٠م.

ومعلوم ما يمتاز به الأوّل من تأثير على الضمائر والمشاعر ـ لذلك نظم قوّاد حركة استعمار الشرق حملتهم تنظيماً دقيقاً فائقاً، وجهزوها بما لديهم من أنفذ الوسائل وأفعل الأساليب. تحبيب تلك الروايات التي أُلبست أكيسةً جذّابة من الإغراء الشائن المفعم بالفظائع والانسلاخ من قويم الآداب وشريف الأخلاق».

وتمضي بنا المقدمة في إيراد بوعث إصداري لرواية «التوأمان» فتقول:

«لاقت هذه الدعاية ـ الدعاية الغربيّة ـ بما زوّدت به رواجاً عظيماً في سائر أنحاء هذا الشرق، وبالخصوص في العالم الإسلامي العربي، فتغلغلت إلى قرارات نفوس الجمع الفقير من ناشئة ومتعلمي فتيانه وفتياته معاً. الذين أصبحوا فيما بعد مطايا مطالعاتهم وضحايا مروياتهم... وكان حقّاً على الشرق عامة، وعلى هذا العالم العربي خاصة، بعد أن بدأت نهضتها الحديثة، أن ينظّما حملة دفاعية تقاوم تيّار هذا السّيل الجارف، وتوقفه عند حدّه... وذلك بمقابلة الإبرة بسنان أختها...».

ثم تمضي بنا المقدمة إلى ميدان الإيضاح عن الأسباب المباشرة لظهور رواية «التوأمان» إذ ذاك، قائلة: «ولكن مع كلّ أسف، فقط ظلّ رجال التربية والأخلاق منا مكمومي الأفواه إلى أمد بعيد، حتى تفاقم الخطب، وأوشك الخرق أن يتسع على الرقع... هناك استيقظ نفرٌ منهم لهذا الشّر المستطير، فأعملوا أقلامهم لإخماد لهيبه، ولكن من غير طريقه الذي انساب وانحدر منه...».

وهنا تصل مقدمة الرواية ـ ما حملني على تحرير مقال في هذا الموضوع الخطير، موضوع الهداية والإصلاح لشبابنا (نشرته مجلة المرشد العربي الغرّاء باللاذقية في جزئها الرابع من السّنة الأولى، عرضت فيه اقتراحي في هذا الشأن، وذلك بما يلي: مقاومة تيّار الفساد المستشري في الشرق من طريقه نفسه وبأسلوبه ذاته. ومعنى هذا اتخاذ الأساليب نفسها التي يروّج بها المفسدون صحفهم ودعايتهم في العالم (فالعبرة هنا بالغايات)... وذلك بتضمين التثقيف الإسلامي المناهج العصرية الجذابة ووضعه في قوالب حديثة تلائم الفكر العام، كالتحرير في بعض الأحيان على الأسلوب الروائي أو الفكاهي أو غير هذين، مما يزيد في رواج صحفنا وكتبنا، فبمقدار رواجها يقاس نجاحهما... ثم قلت متابعاً الموضوع:

«وهذه الرواية «التوأمان» إنّما ألّفتها عملاً بهذه الفكرة الشريفة».

وبعد، فذلك كان المصدر الذي انبثقت منه فكرة كتابتها بتفصيل وتبيان... وفعلاً فقد جرت فصول الرواية على المنهج المقرر لها حتى أوفت على ختامها الذي يصل بالقارئ إلى نجاح أحد التوأمين: الفتى (رشيد) نجاحاً باهراً في حياته العلمية والعملية، حينما سار في السبيل المرضي في دراسته، ولم تجرفه مغريات المدنية، حيث إنه لم يدخل مدارسها، فقد قصر دراسته الابتدائية والثانوية والعالية على المدارس الوطنية الرشيدة المناهج... أما شقيقه (فريد) فقد انحاز بسبب تأثّر ذهنه بالمغريات الغربية الجارفة إلى طريق الدراسة الغربية في ديار الغرب، فاستهوته مظاهرها الخداعة، ودفعته إلى ولوج سبلٍ ملتويةٍ منافية للأخلاق المرضية، وكانت نهايته الإخفاق في دراسته ثم تدمير حياته بفعل العوامل المكيفة لها في الغرب، التي تدفع الشباب دفعاً قويّاً إلى سلوكٍ غير مُرضٍ ولا شريف، أسوةً بكثير من الطلاب الشرقيين الذين يدخلون، وهم في سنّ المراهقة إلى ديار الغرب، فتلهيهم عوامل الإغراء عن متابعة الدراسة، وتطوّح بهم إلى الرّدى والانهيار...

ذلك كان ملخص الرواية موضوعاً وأهدافاً، وتأثيرات خارجية وداخلية معاً. وهي تقع في أربع وسبعين صفحة من الحجم المتوسط. وقد أشرف على تصحيحها أثناء الطباعة في دمشق المربّي المثقف الأستاذ (محمود الحمصي) ـ رحمه اللّٰه ـ مدير المعارف المنتدب بالمدينة المنور وقتذاك. وقد لاقت الرواية استقبالاً طيباً ناجحاً ينمّ عن تقدير كبير لموضوعها.

وبعد:

إن مؤلّفات عبد القدوس الأنصاريّ ـ رحمه اللّٰه ـ ليست قليلة بالنسبة لطابعها التحديدي في عصر النهضة العربية. وهو لم يركّز حول موضوع رئيسي واحدٍ ـ كما نرى ـ بل جاءت مؤلفاته مختلفة فمنها في الرواية ومنها في الشعر فالأدب فالتاريخ فالآثار... وللأنصاريّ روح متفتحة يوجد بها اهتمام حقيقي بالعلوم وخاصة في مجال الآثار الذي ساهم بأصالة وبمادة أصيلة في موضوعات لم يسبق بحثها سابقاً.

وقد جاءت مؤلفاته بأسلوب عربي مبين، وهو من أهم الشخصيات الثقافية السعودية والعربية بصفة عامة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
الديوان الملكي
مكتب خاص

الرقم .. [illegible]
التاريخ . [illegible]

حضرة المكرم الاستاذ عبد القدوس الانصاري

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد

فقد احدنا رسالتكم المؤرخة في ٢٨ رجب ١٣٨٩ هـ ومعها كتابكم (بين التاريخ والاثار) .

واننا لنشكركم على ذلك مقدرين جهودكم الطيبة وسائلين المولى القدير ان يأخذ بيدنا لما فيه خير ديننا ووطننا وان يوفقنا لما فيه عز الاسلام والمسلمين .

والله يحفظكم ..

0000000000000000000

● فوق هذا نص الكلمة السامية التى أفضل بها جلالة الامام الشهيد الملك فيصل بن عبد العزيز تغمده الله برضوانه ، عن هذا الكتاب ●

صورة عن الشهادة

الباب الثاني

الأنصاريّات في ميزان الشّعر

الفصل الأوّل

١ـ ديوان الأنصاريّات:

ترك «عبد القدوس الأنصاري» ـ رحمه اللّه ـ ديواناً شعريّاً، أطلق عليه اسم «الأنصاريّات»، وقد صدرت طبعته الأولى من مطبعة الوفاء ببيروت سنة ١٣٨٤هـ، ثمّ أُعيدت طباعته مرة ثانية سنة ١٤٠١هـ، ومرة ثالثة سنة ١٤١١هـ = ١٩٩١م.

وقد عللّ الأستاذ «نبيه بن عبد القدوس الأنصاري» ـ صاحب ورئيس تحرير مجلة المنهل ـ سبب إعادة طباعة ديوان والده قائلاً: «بعد أن كَثُر الطلب عليه لنفاذ طبعاته السابقة، وبعد أن قام الدكتور الأديب «عبد اللّه باقازي» بكتابة مؤلفه الجديد «عبد القدوس الأنصاريّ شاعراً» الذي درس فيه شاعرية الأنصاريّ، مما استوجب منا إعادة طبع الديوان... لقد عرف القُرّاءُ الأنصاريّ أديباً مقتدراً ولغوياً بليغاً... وباحثاً ومؤرّخاً... وصحفياً... ولكنهم لم يعرفوه شاعراً... إلا القليل من الباحثين والدارسين، وهو مقلّ في شعره...

ولقد ضمّ هذا الديوان من شعر «الأنصاريّ»: العقيقيّات... والتأمّلات... والسياسيات... والوصفيات... والغزليات... والإخوانيات... والفكاهيات...

ورغم التزام الشاعر عمودية الشعر، فإنه كثيراً ما نوّع القافية في القصيدة ذات البحر الواحد... وجاءت مشاعره في هذا الديوان عفوية تحدّد فلسفة الأنصاريّ في الحياة والأحياء،... وتؤكّد بُعْدَ نظره ودأبه وحرصه الدائم على التنويع والتشويق في مجمل أعماله ومؤلفاته...».[٥٧]

---

٥٧ الأنصاريّات ـ تصدير بقلم نبيه بن عبد القدوس الأنصاريّ ـ الطبعة الثالثة ـ ١٤١١هـ.

وقد كتب الدكتور «عبد الله أحمد باقازي» دراسة حول ديوان «الأنصاريّات» وأورد في مقدمتها سبب اهتمامه ودراسته لديوان الأنصاريّ، فقال: «لقد حمل ديوان «الأنصاريّات» رؤية شعرية لأديب وشاعر سعودي، رائد، رأيت أن تكون «محور» دراستي في هذا الكتاب، تقديراً لروّادنا، وكشفاً عن ملامح شعرهم، وإنصافاً لرجال مخلصين، كان العمل العملي «همتهم»، وصدق «الكلمة» مزيّتهم، ومنهم الأستاذ «عبد القدوس الأنصاريّ» ـ رحمه الله ـ الذي أكتب كتابي هذا عنه تقديراً وعرفاناً لعلمه وأثره وجهده وفنّه: عالماً، ورائداً، وشاعراً،...».[٥٨]

٢ـ الأنصاريّ الشاعر بين الأصالة والتجديد:

يقول «عبد القدوس الأنصاريّ» ـ رحمه الله ـ في مقدمة ديوانه[٥٩]: «... إن الشّعر كائن حيٌّ يتجدّد ويتفاعل مع الحياة... بأسلوبه لا بأسلوبها... وبداخل إطاره هو، لا إطارها هي. وما اعتقدت ولا أعتقد ولن أعتقد أنّ من الخير أن نعمد إلى قوالب الشعر العربي الرصينة الخالدة خلود العروبة والإسلام، فننسفها ونشبعها تمزيقاً وتشويهاً، بدعوى مسايرة التجدّد والتجديد، ثم نأتي بمسخ «متأورب» لا هدف له ولا لون ولا وزن ولا قافية... ونضعه على «منصّة ذلك الشعر المثالي الخالد الموهوب... إنني آسى على من يسيرون في هذا الدرب الذاهب بهم، لا مُحالة، إلى مهاوي النكسة المحتومة المشؤومة... ألا يا قوم استيقظوا لما يُراد بكم، فلعلها مكيدة من مكايد الاستعمار الثقافي... أو حيلة ماكرة من حيل الغزو الفكري الواحد... وإلاّ فإلى أي دربٍ تسيرون بشعركم هذا العظيم، لتذبحوه ضُحىً على أعتاب القريض الأوروبي الخاص بطبيعتهم وتقاليدهم، أتريدون أن تصدّقوا فيكم نظرية «اتباع المغلوب للغالب» في كل شيء، حتى في شعركم المكين، وفخر أوطانكم المبين، ونتاج أسلافكم الميامين، وشعار لغتكم ومرجعها الأمين...»

٥٨ عبد القدوس الأنصاري شاعراً: د. عبد الله أحمد باقازي ـ ص٧ـ٨ ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١١هـ.

٥٩ انظر مقدمة ديوان الأنصاريّات.

أما المعاني والأهداف الشعرية فلنا ـ مع الحفاظ على قالب الشعر العربي وطابعه ـ أن نطرق منها ومن آفاقها كل ما يتسنّى لنا طروقه... ونحقق له كلّ ما يمكن لنا تحقيقه، وإن هذا هو (التجديد) الحق بدون شك وما سواه فتبديد وتجريد... إن المعنى الجيد الرائع في اللفظ الجيد الرائع، في القالب المجيد الخالد، حيٌّ في كل نفس وزمان ومكان... وإلا فلم خُلّد شعر المتنبي، والمعري، وأبي تمّام برغم مضي ألف عامّ وإلا فلم بقي شعر شوقي أيضاً ساطعاً كالشمس على آفاق العروبة والإسلام والعالم برغم سعي الزعانف الواهمين الذين يزعمون لشعرهم المخدّع المشبوع الأقطع الأبتر، من التجديد، أنّ فيه كل التجديد...».

وقد أورد الأنصاريّ موقفه الشعريّ في مقدمة كتابه الذي أسماه «رحلة في كتاب من التراث»، فيقول[٦٠]: «... إنّ من أهم مزايا الكتاب أنه يضع في أيدينا «برهاناً واقعياً» على مدى اتساع بحر الشعر العمودي، ومدى رحابة صدره وأفقه، سواءٌ أكان متروياً فيه أم بدهياً أم مرتجلاً، بشتى مرامي الإنسان، في تسجيل مطالبه، وتحقيق خيالاته، وإبداع وصفه وتصويره، لخلجات نفسه، وما يستجد من مرافق الحياة أياً كانت...».

ثم يبيّن لنا الأسباب التي استرعت انتباهه، وأكدت رأيه السابق حول مقدرة الشعر العمودي في ميادين الحياة، فيقول[٦١]: «... ومما يسترعي الانتباه، ويؤيد قدرة الشعر العمودي المطردة، حتى في ميادين العلم الصناعي، ما قرأناه في هذا الكتاب القيّم من تسجيلٍ لمخترعات عربية في الحضارة الإسلامية الزاهرة بشتى المعارف والعلوم والثقافات... فهذا مثلاً أحد علماء العرب الشعراء الأذكياء، يخترع بفكره الألمعي ــ قبل الغرب بعدة قرون ـ «الإنسان الآلي... ـ ثم تقوم شاعريته الثرّة بتسجيل شعري بدهي

---

٦٠ انظر مقدمة كتاب الأنصاريّ (رحلة في كتاب من التراث) صادر عن مطابع الروضة بجدة ـ المكتبة الصغيرة. «والكتاب يعدّ من أنفس كتب تراثنا الأدبي ـ كما يذكر ــ في حقل شعر البداهة والارتجال... أحد الأفنان المزدهرة في دوحة الشعر العربي العمودي الأصيل الموزون المقفى الذي ولد في عصر الجاهلية، ثم عمّ الآفاق في عصر الإسلام المديد الخالد... وهو كتاب «بدائع البدائع» لعلي بن ظافر الأزدي الخزرجي».

٦١ المصدر السابق.

لحقيقة هذا الاختراع... ثم يأتيه شاعر بديهة آخر معاصر له، فتأبى شاعريته الثرّة المتمكنة إلا أن تسجّل ما قام به زميله في تجربة علميّة رائدة، أو اختبار فحصي للاختراع المشار إليه آنفاً... ويأتي «ابن ظافر» فيسجّل لنا هذه الوقائع في شعرها البدهي بكتابه الأنيق: «بدائع البدائع».

٣ـ إشكالية الأصالة والحداثة في الساحة الشعرية:

قضية الأصالة والتحديد (الحداثة) في الشعر العربي، لم تشغل شاعرنا الأنصاريّ وحده، أو هي لم تشغل ساحة الشعر العربيّ السعودي فقط، إنها قضية عامة، تشغل أجيال الشعر في كل مكان من وطننا العربي، وما زلت أذكر صيف عام ١٩٩١م عندما طرح محرّر الصفحة الثقافية في صحيفة البعث: الأستاذ الشاعر «وليد مشوّح» هذه القضية على بساط الحوار والنقاش إثر مقالة عن الشعر كتبها رائد من روّاد الشعر العربي، هو الأستاذ الشاعر «حامد حسن». ثمّ امتدّت بنا مساحة الحوار إلى التلفزيون العربي السوري، فسمّي اللقاء باسم «الشعر وأجيال الشعراء».

وقبل هذا اللقاء نشرت مقالةً في صحيفة البعث بعنوان «شعرنا العربي بين أصالته ورخوياته»، ومما جاء فيها[٦٢]: «... أنا لَسْتُ متعصّباً جدّاً للشعر العمودي كما يتراءى للبعض، فأنا أكتب قصيدة التفعيلة أيضاً، ولي بها أشواط، وقد كتب عن تجربتي أعلام في النقد والأدب. إن قصيدة «الحداثة» أو قصيدة «النثر»... هي ـ كما يريدها أصحابها ـ القصيدة المتخلصة من قيود الوزن والقافية... والشعر كما نعلم، هو شكل ومضمون... فإذا خلا جسد القصيدة من الرّوح ثم ارتدى ثياباً مستعارة لا تتناسب مع شكل القصيدة العربية... فما الذي يبقى من القصيدة الشعرية حتى نقرأها ونتمتع بجماليتها، ونحكم على مضمونها؟

إذاً: القصيدة بهذه الحالة، هي هيكل منخور، لا لون ولا طعم ولا رائحة!!

كثيرة هي القصائد التي تطالعك في كل صباح، فتخجل من تسميتها «قصيدة» لأن صاحبها لم يستطع السيطرة على وحدة الموضوع، بل راح يجمع أشتاتاً لأشتات،

---

٦٢ انظر الصفحة الثقافية بصحيفة البعث سورية /العدد ـ ٨٥٧٦/.

ويقلقها للناس كي يفهموا هذه الألغاز السحرية، أو يجدوا لها حلاً...

لقد استطاع شعراء كثيرون استيعاب روح العصر محافظين على شكل القصيدة العربية التي تعبّر عن أصالتنا، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: «حامد حسن ـ أحمد أسعد الحارّه ـ هند هارون ـ عفيفة الحصني ـ علي أحمد ـ عبد الجبّار الرحبي ـ جابر إبراهيم سلمان ـ وغيرهم...

أما أصحاب القصيدة «الرّخويّة المسطّحة»، فإنه يحاولون بكل إمكاناتهم التضييق على شعراء الأصالة... وكثيرة هي اللقاءات الشعرية التي أنشدنا فيها شعراً، أو استمعنا فيها إلى الشعر أو إلى كلام يدعي أصحابه أنه شعر... ووضعنا أنفسنا في مرتبة الجمهور المتلقي، فكنّا نرى نفور أغلبية جمهور المستمعين من النصوص النثرية، وتوقه إلى قصيدة يستشفّ فيها روح الشعر كي تداعب روح مشاعره... والأهم من ذلك، أن ما يستمع إليه لا يعبّر عن رؤية تعبيرية واضحة... فإذا كان الجمهور المتلقي، وهو بأغلبيته ـ جمهور مثقف ـ ينفر هذا النفور كلّه، ولا يدرك ما يريده المُلقي من كلامه، ولا تحمله مفردات النص إلى جمالية واضحة، فلمَنْ يا تُرى نكتب الشعر، وعلى مَنْ ننشده؟

إننا عندما نحاسب أنفسنا، ونقف مع ذاتنا لحظات تفكير جادة، سنصل إلى نتيجة منطقية... فنحن نلاحظ تمييز الجمهور ما بين شعراء الحداثة وشعراء الأصالة، فما أن تقول لهم: إنني أكتب شعر الأصالة، حتى يحيطك باحترامه وتقديره، ويطلب منك أن تسمعه شيئاً من ذلك... لكنك عندما تفاجئه بحداثتك، فإنه يعتبر ذلك أمراً عادياً جداً، يمكن للكثيرين أن يفعلوا مثله، أو يأتوا بأحسن منه... جمعتني فرصة مع شاب «حداثي»، يتابع أمور نشر مجموعة شعرية له، وافقت على نشرها إحدى المؤسسات المسؤولة المهمّة، وعلى نفقتها الخاصة... كان هذا الشاب يعرفني جيداً، ولا سيّما أنه حضر لي أمسيات شعرية في جامعة دمشق وغيرها...

ولقد فوجئت به كثيراً، عندما وجّه الكلام إليَّ قائلاً: أنت يا أستاذ أكرم، جنيت على نفسك... قلت له: كيف؟ قال: بتعلقك بعمود الشعر العربي... ويبدو أنك ملتصق به... أوْ هو ملتصقٌ بك كلّ الالتصاق... ولا تستطيع مفارقته... وإن ديوانك الشّعريّ الأوّل قد طبعك بهذا الطابع... قلت له: أنا أكتب قصيدة التفعيلة

أيضاً، ولي أكثر من ديوان بذلك، وأسمعته قصيدة حديدة، فإذا به يقول: حتى هذه القصيدة، فالقافية ما تزال تلاحقك، والوزن أيضاً... لماذا لا تتخلّص منهما؟ لماذا لا تكتب القصيدة الحديثة؟ إنها روح العصر، فيها يكمل الشعر، وتنتعش النفس، أنا لا أجد نفسي إلاّ بها:

تأمّلت الشاب مليّاً، وقلت: كيف يستطيع الإنسان التخلّي عن ماضيه دفعة واحدة؟ كيف يخلع ثيابه دفعة واحدة؟ ولا يتستّر بشيء!؟

ماذا تقول لشعراء المعلقات؟ ماذا نقول لزهير بن أبي سلمى، وللنابغة الذبياني؟ وماذا نقول لأبي تمّام والمتنبي والبحتري وأبي فراس الحمداني...؟

هل نقول لهم: إن شعركم ليس شعراً، ولسنا بحاجة إلى تراثكم؟ هل نخلع عباءة هذا الشعر، ونأخذ بعباءة صاحبنا الذي لن ولن يستطيع كتابة قصيدة عمودية واحدة... لقد رأيته يسلّم قصيدة لزميلنا «المضيف» الذي نجلس في مكتبه... وبعد أن خرج مودّعاً، قرأ صديقي «المضيف» القصيدة التي تسلّمها منه، فرآه يضع همزة فوق الألف في الكلمة الآتية (باسمنا)، ووحده يكتب (أن نكون صديقان)، وقصيدته هذه تقع في خمس صفحات من الشعر الوحداني...

إذاً: هو لا يفتقر إلى علم العروض والشعر فقط، بل هو بحاجة إلى دروس تطبيقية في الإملاء والنحو واللغة:

اقرأوا معي هذه العبارات: (فراشات تتقافز)، (الطائرات الورقيّة فضاء للشّغف الجميل)، (أن يلقينا زبد استغاثة بين حوافر الجوع، وحوافر اليقين تربك إحساسنا)، الأحذية تفتق الخجل، وشعور يركض حافي الأظافر...).

هل هذا هو الشعر الحديث المتطوّر الذي نستغني به عن كل تراث وأصالة؟... كيف نسمح لهؤلاء التصرّف بمفردات لغتنا العربية بهذه الصورة المشوّهة؟ لو سمع «أبو تمام» أن الفراشات تتقافز، وأن الجوع له حوافر، وأن الأحذية تفتّق الخجل، والشعور يركض حافي الأظافر... لكتب شعره بأية لغة أخرى، أو تخلى عن الشعر تماماً، طالما أن أمثال هؤلاء هم الذين يتعربشون على سلّم الشعر ويأخذون الصّدارة والاهتمام والنشر والتكريم، ويعيبون على شعرنا العربي عروضه وقافيته...!

إنها دعوة للحفاظ على أصالتنا وشعرنا العربي ولغتنا الجميلة التي يجب أن نحسن استخدام مفرداتها. أما أن نترك أمثال هؤلاء «المستشعرين» يتحاملون على تراثنا وأصالتنا، ويتصرّفون بمفردات لغتنا كيفما يشاؤون، فتلك هي المشكلة...!».

وبعد لقاء «الشعر وأجيال الشعراء» في التلفزيون العربي السوري، والذي كنت أحد شخصيات الحوار فيه، كتبت مقالي: «الشعر وأجيال الشعراء»، وأظهرت فيه جوانب أخرى، ومما ورد فيه[٦٣]: «... يقولون ذلك: إن القصيدة «الحداثية» هي القادرة على احتواء كل شيء... وبها تتحقق وحدة بنيوية القصيدة».

وإننا نسألهم: ألم تحقّق قصائد شعرنا العربي في مراحلها كافة وحدة القصيدة إلا على أيديكم أيها الشعراء؟!.

أتناسَيْتُمْ أنّ كل بيت في القصيدة العربيّة الأصيلة يؤلّف وحدة بنيوية كاملة...!

إن الشعر العربي يصرخ مفتخراً: أنا بكم يا أصحاب البيان نَمُوتُ... ولكنّ «الحداثيين»، يقولون له: إنّنا بك أيّها الشعر الأصالة، نَمُوتُ...!

لقد أحيا القدماء لغتنا لأنهم أبدعوا في شعرهم، ويعتبر «أبو تمّام» رائد شعراء الحداثة اللغوية والفنية... ونحن بغياب الإبداع الشعري في مثل هذه القصائد «الحداثية» فإنما نعمل على قتل لغتنا وإضعاف وموت مفرداتها.

إنّ الحداثة الأندلسيّة تصرّفت في الأشكال والمضامين، ولكنّه تصرُّفٌ متعامد مع الذات التراثية، ومتوازنٌ مع الأحداث والمتغيرات، وإنما بالقدر الذي تفاعلت به مع محيطها الطبيعي والاجتماعي والنفسي... فلغتنا العربية أقدر من أية لغة أخرى على احتواء الموضوعات، لأن الكثير من مفردات اللغات الأخرى يسبّب اضطراباً لغوياً بسبب فقدانها الأصل الروحي الموسيقي، وضياع الناظم الجذري الثابت... فالفرنسيون مثلاً حاولوا ترجمة تاريخ أجدادهم ليتعرّفوا على أدبهم، لأن لغة الأجداد هجينٌ تكويني من اللغات الهندية والأوروبيّة.

---

٦٣ انظر المصدر السابق عدد ١٩٩١/٧/٢٤م.

ومن هنا، فإن محاولة تدسيم الدماء الشعرية العربية بشحوم الصناعة الغربية، إنّما هي عملية خطيرة، قد تؤدي إلى تصليب العروق الشعرية، وبالتالي إلى سكتة الشعر، كما يحدث الآن... فهل استنساغ الفروع من الجذور يعتبر ارتداداً أو مواتاً أو تخلّفاً...؟

إنّ الذين يرون أن الشعر «الأصالة» لا يستطيع تمثّل الحياة العصرية، لم يبنوا رؤيتهم على علمية وواقعية، لأنهم برهنوا على نظريتهم بنتاج أشباه الشعراء أو المتعدّين أصلاً على رسالة الشعر... فليست كل قصيدة عمودية جميلة أو رديئة، وليست كل قصيدة «حداثية» جميلة أو رديئة... والإبداع، سواء أكان بأسلوب «حداثي» أم بأسلوب «كلاسيكي»... إنما هو في المضمون، ولا بدّ له من أرضية ومستقبل، وقضية التثوير الجديد في المفردات واللغة، هي قضية بعث جديد لهذه المفردات ولهذه اللغة، وهذه هي ذاتها قضية الحداثة.

الشاعر «محمّد عمران» أحد روّاد قصيدة النثر في سورية، توجّهت إليه بسؤال حول قصيدة الحداثة النثرية، فأجابني:

«إن الشعر العربي الحديث لم يعرف قصيدة النثر إلا في نماذج قليلة، وإنّ ما ينشر حالياً لا يعتبر قصائد، وإنّما هو عبارة عن خواطر نثرية، عالمها فضفاض، وطريقتها سردية، تقول أكثر ما توحي، وإنّ ما يُفرز الآن لا يمثّل الحداثة أبداً، لأن الحداثة يجب أن تكون إضافة إلى التراث فلا شاعر حداثي إذا لم يرتبط بتراثه، ويعرف العروض والأوزان، ويدرس حركة تطوّر الشعر العربي، وقصيدة الحداثة ليست خروجاً على القصيدة العربية فنياً ولغوياً وروحيّاً، والشاعر «الحداثي» الذي يقرأ «رامبو» وأمثاله فقط ليس شاعراً... والشاعر العظيم يكتب قصيدة أو اثنتين في حياته كلّها...

فلقد كتب «إليوت» قصيدة واحدة، هي «الأرض الخراب» وكتب «رامبو» قصيدة واحدة هي «المركب السكران»، وأنا على أية حال ضد الإبهام لأنه حالة عجز، وعندما لا يعرف الشاعر ما يقول، فهو ضعيف وعاجز».

ووجهت السؤال نفسه إلى شاعر يتعامل مع قصيدة النثر، وهو الشاعر «حسين حموي» فأجابني قائلاً: «إن ما يُنشر الآن في صحفنا ودورياتنا في معظمه ليس شعراً... ويعود ذلك لسببين:

١ـ عدم وجود قيّمين موضوعيين أكفاء، يتعاملون مع النص بغض النظر عمّن صاحبه، ومكانته والمنافع المرجوّة منه...

٢ـ عدم وجود معايير نقدية دقيقة، تجعل من الحداثة وقصيدتها عملاً إبداعياً محكماً إلى معايير نقدية ثابتة معترف بها، ومتفق عليها...

وهنا لا بدّ من التذكير بأن الحركة النقدية مقصّرة في هذا الجانب لأنها لم تواكب في مصطلحاتها النقدية الحركة الشعرية «الحداثوية» على مستوى الوطن العربي...

وإنني أدعوها دعوة ملّحة لأن تدرس بجديّة ظاهرة الحداثة، وتعطي حكمها الجريء والصريح، وتضع المعايير المناسبة... كما أطالب الشعراء بألاّ يكونوا ذوي دوائر ضيقة، فيكيلون الاتهامات (جزافاً) لمن يخالفهم طريقة الكتابة الشعرية... فإذا كان الآخرون يجدون غضاضة في قبول الشعر الحديث بأشكاله المختلفة، فعلى الشعراء أنفسهم أن يتجاوزوا هذه الخلافات الشكلية، ويبحثوا عن القصيدة الجيدة أينما كانت وبأي شكل كانت».

نرجو بهذا أن نكون قد ألقينا الضوء على جانب من قضية الأصالة والحداثة (التجديد) في الشعر العربي المعاصر من خلال ما طرحناه من إشكاليتها في الساحة الشعرية وأجيال الشعر في سورية. وفي العام نفسه الذي كنّا نثير فيه قضية الحداثة في سورية صيف عام ١٩٩١م، وجدت القضية ذاتها مثارة بين الأدباء والشعراء والنقاد في دولة الإمارات العربية المتحدة، كما قيل لي أثناء لقائي بعدد منهم.

فقد استمعت إلى رأي الشاعر العربي الكبير المعروف «سلطان بن علي العويس» ـ صاحب جائزة «العويس» الغنية عن التعريف» ـ حينما قال لي عن رأيه في الحداثة والأصالة «إن القصيدة التي تعبّر عن هموم الناس وأمورهم وعلاقاتهم هي الباقية سواء أكانت قديمة أم حديثة...».[٦٤]

---

٦٤ انظر الصفحة الثقافية من صحيفة البعث سورية ـ العدد /٨٨٨٩/ ١٧/٧/١٩٩٢م.

الفصل الثاني

الجوانب الشعريّة في ديوان الأنصاريّات

١ - شعر الطبيعة

ليس شعر الطبيعة ظاهرة جديدة في شعرنا العربي، فهو موجود مع أوّل بيت شعريّ في أول معلقة شعرية. قال امرؤ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللّوى بين الدّخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجته من جنوبٍ وشمألِ[٦٥]

إن تسمية الأماكن في قول امرئ القيس (سقط اللوى، الدّخول، حومل، توضح، المقراة) يعتبر وصفاً لطبيعة المكان الذي وقف فيه الشاعر مع صاحبيه باكياً مستبكياً من معه على حبيب رحل، وخلّف وراءه هذه الأطلال التي باتت ذكراها موجعة في قلبه، بعد أن أعملت رياح الجنوب والشّمال فيها عواملها:

ولا يخفى علينا أن امرأ القيس لُقّب بشاعر الطبيعة، فوصفها حيّة وصامتة، وصفها حيّة لأنه وصف لنا الفرس والناقة والثور الوحشي والحمار الوحشي، وكلب الصيد والظليم... ووصفها صامتة عندما وصف الليل والغيث والبرق وما إلى ذلك...

وشعرنا الجاهلي مليء بهذا اللون من الشعر، حتى يكاد يكون جلّه في مثل هذا الغرض، وهو ممتزج بشعر الوصف.

وإذا غادرنا هذا الشاعر إلى قول «حسان بن ثابت» في العصر الإسلامي، إثر معركة«بدر»:

---

٦٥ شرح القصائد العشر للتبريزي ص١١ - ضبط وتصحيح عبد السلام الحوفي - طبعة دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٧م.

عرفت ديار زينب بالكثيب ... كخط الوحي في الورق القشيب
فخبّر بالذي لا عيب فيه ... بصدق غير إخبار الكذوب
بما صنع المليك غداة «بدر» ... لنا في المشركين من النصيب
غداة كأنّ جمعهم «حراء» ... بدت أركانه جنح الغروب
فغادرنا أبا جهلٍ صريعاً ... «وعتبة» قد تركنا بالجبوب[٦٦]

في قول حسان نتمثّل الطبيعة في أطلال زينب بمنطقة «الكثيب»، هذه الأطلال التي ما تزال واضحة المعالم، وكأنّها خط القلم في الورق الجديد.

كما نتمثّل صورة الطبيعة بتشبيه جثث المشركين المتراكمة فوق بعضها بجبل «حراء»، حتى إنه ميّز ما يتحوّل إليه لون أركان الجبل قبيل غروب الشمس، فالقسم المواجه للغروب يختلف لونه عن القسم المعاكس من صورة الظلال. ثم سمّى لنا بعض قتلى المشركين، وحدّد لنا من الطبيعة أماكن بعض القتلى الآخرين /الجبوب/.

هذه بعض نماذج الوصف في شعر الطبيعة، وهي على سبيل المثال لا الحصر، حتى لا تبعدنا عن موضوعنا الأساسيّ من شعر شيخنا الأنصاريّ ـ رحمه الله ـ

ليس يخفى علينا أن المادة الشعرية هي نتاج مخزون ذاتي، تقرؤه الروح الشفافة في مرآة الواقع، وتحوّله إلى حقيقة، وعندئذ تتحوّل هذه المادة إلى واقع ملموس، وتصبح قابلة للقياس والنقد، لأنها خرجت من ملكية صاحبها، وأصبحت ملكاً للآخرين، ويحق لهم إبداء الرأي والمناقشة والحكم.

ويقولون: إنّ القصيدة الشعرية هي نتاج لحظة وجدانية عاشها الشاعر في حياته. وهكذا كانت قصائد شاعرنا الأنصاريّ. وممّا يسهّل علينا الأمر التعرّف بمناسبة القصيدة، أنه ذكر لنا ذلك في مقدّمات بعض قصائد ديوانه.

أما شعر الطبيعة في ديوانه، فنتلمّسه من خلال ثلاث قصائد متتالية هي:

١ـ الشاعر والغيم العابر.[٦٧]

---

٦٦ ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ص١٢-١٣ ـ دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٨٧م.

٦٧ ديوان الأنصاريّات ص٣-٥.

٢ـ وحي العقيق في يوم انهماره.[٦٨]

٣ـ وقفة بوادي العقيق.[٦٩]

يقول الأنصاريّ في مقدمة قصيدته الأولى: «كان الشاعر في أصيل يوم جميل، بوادي العقيق[٧٠] في المدينة المنوّرة مع رفاق له، يتنزّهون هناك، إذ بدت لهم سحابة غيم بيضاء، رقيقة في الأفق الغربي، ثم أقبلت حتى إذا كانت فوق الوادي تماماً، هطلت هنيهة، ثم كفّت، وشرّقت، فأوحى هذا المنظر الجميل هذه المقطوعة...».[٧١]

ثمّ يبدأ الشاعر قصيدته مخاطباً الغيم:

آيها الغيم با بن ماء البحار ... لِمَ تبكي بدمعك المدرار؟!
لم تذق في حياتك البوس حتى ... تملأ الأرض بالدموع الغزارا!
لم تذق في حياتك الحبّ حتى ... يعصف الحبّ بالفؤاد المطار[٧٢]!

فالشاعر، كما نرى، يجسّد من الغيم كائناً حيّاً عاقلاً، لأن المخاطبة تدل على أن متلقي الخطاب، كائنٌ حيٌّ عاقلٌ يملك مشاعر وأحاسيس، والدليل على ذلك استخدام

---

٦٨ ديوان الأنصاريّات ص٧ـ١١.

٦٩ ديوان الأنصاريّات ص١٣ـ١٧.

٧٠ وادي العقيق: يقع في غربي المدينة المنوّرة، ويشقّه طريق مكّة، ويكاد طريق المدينة يتصل بمداخله. والطرق إليها: باب العنبرية ـ الطريق شمالي قبة الخضر والمدرج ـ العقيق ـ ويبعد عن قلب المدينة من هذا الطريق بنحو ثلاثة كيلو مترات. [انظر كتاب بين التاريخ والآثار ص٧٧].
ـ أما سبب التسمية «بالعقيق» لأنّه عق في الحرّة أي شقّ وقطع، وهناك قول بأن سبب هذه التسمية هو حُمرة الوادي. [انظر كتاب بين التاريخ والآثار ص٧٦].
ـ وذكر الأنصاريّ في كتابه «بين التاريخ والآثار» ص٧٦: هذا الوادي الذهبي الذي كان في عصر من العصور مطمح أنظار الخلفاء والأغنياء والشعراء بما حوى من قصور جميلة ومنتزهات لطيفة.

٧١ ديوان الأنصاريّات ص٣.

٧٢ ديوان الأنصاريّات ص٣ـ٤.

الشاعر مفردات موحية تخبرنا بذلك، مثل: (البكاء، الدمع المدرار، تذق، البؤس، الحبّ، الفؤاد المُطار...).

هذه المفردات مدلولات لغوية، وظّفها الشاعر بإحساسه الداخلي لهذا الموصوف الذي أسبغ عليه هذه الصّفات كلّها، وجعل منه كائناً يشكو إليه أمره، ويبثّ إليه أشجان قلبه الملتاع.

كما نلاحظ رصد الشاعر لحركة الغيم، فهي سريعة جداً، والدليل قوله: (يعصف الحبّ بالفؤاد المطار).

كما أن استخدام الشاعر للغة النداء في البيت الأوّل بقوله: (أيّها الغيم يا بن ماء البحار)، واستخدامه لصيغة الاستفهام: (لِمَ تبكي)، دليلٌ واضحٌ على تجريد الموصوف كإنسان يحسّ ويدرك ويعي، وهذا من قبيل استنطاق الجمادات، وتشبيهها بمشبه له الصّفات الآنفة الذكر، وهذا من قبيل الاستعارة التي تجمّل الصور الشعرية، وتجعلها أكثر إشراقاً وحركة.

إنّ الغيم قد تعرّض لعملية مداهمة، وهذه المداهمة جاءته من الرياح التي سخرّها اللّه لتحوّل هذا الغيم مرّة أخرى إلى أصله المائي، وتعيده إلى حيث كان.

وهذه الأمور كلها من المعلومات الجغرافية العلمية التي تبيّن حالات تشكُّل بخار الماء ثم الغيم ثم اصطدامه برياح باردة في مناطق جوية مختلفة، ثمّ نزوله مرة أخرى إلى الأرض، ليقضي اللّه به أمراً كان مفعولاً.

يقول الأنصاريّ مخاطباً الغيم:

داهمتك الرياح في عيلم مو ... ر فألوت بروحك المترامي
وتذكّرت موطناً كنت فيه ... مضمراً في (التيّار) قبل التسامي
فسكبت الدُّموع من قلب مضنىً ... وتقاطرت هكذا في الموامي [٧٣]

إذاً: مداهمة الرياح للغيم جعلته يلوي عنقه إلى حيث مكانه الأصلي، فقد أدرك الغيم أنه لا مكان له في المكان الذي تتواجد فيه الرياح، وما عليه إلا أن يعود إلى مسقط

٧٣ ديوان الأنصاريّات ص٤. الموامي: مفردها موماة: الفلاة، الصحراء.

رأسه الذي كان فيه قبل أن يفكّر بالرفعة والسمّو... وها هو الآن يتشكّل من جديد ليعود إلى أحضان أمّه التي اشتاقت لِلُقياه، لأنها ستنبعث حياتها فيه من جديد، فقد ذاقت به محياها ومماتها...

وإذا كُنّا أكثر شفافية في الكشف عن مدلولات هذه الكلمات، وجاز لنا تحميل المعنى بأكثر من هذا الفهم للأشياء، لقلنا: إنّ الغيم يشبه الإنسان الذي يبدأ تشكّله فوق هذه الأرض، ومنها، ومع مرور الزمن، يبدأ هذا الكائن، يفكّر بالتحليق عالياً، ربّما بطموحات أخرى، وأشياء يريد تحقيقها، فيحلّق، ويحلّق، إلى أن تأتي الساعة التي تعيده فيها إلى الأرض، من حيث كان خروجه وتشكّله، وتلك سنّة اللّه في خلقه.

يقول الأنصاريّ:

أنت يا غيم في سمائك نَوْرٌ ... نظمته يد الإله الكبير
أنت يا غيم، تلك البحور ... تنتضيه لِيُمْن هذي البرور
حيث تكسو القفار عشباً نضيراً ... تتحلّى أكمامه بالزّهور[74]

هكذا يرى الشاعر: قِطَعُ الغيم واحات خضراء فيها أزهار بيضاء، نسقتها في قرص السماء قدرة الخالق الكبير ليمتع بها أهل الكون.

وفي قصيدة «وحي العقيق في يوم انهماره»[75]، التي نظمها الشاعر في يوم ١٢/٢/١٣٥٩هـ، حين انطلق مع صحبه إلى «وادي العقيق» في يوم انهماره، وانتحى عنهم جانباً، وجلس وحيداً على ضفة الوادي الذهبي المنهمر، يناجي فيه عبر التاريخ، ويتأمّل منه روعة الحاضر، ويستلهم جماله الناضر، وهديره الشاعر – وحي الشعر... كان الوقت أصيلاً، مالت فيه الشمس إلى الغروب، وقد انعكست أشعتها الذهبية المتألّقة على صفحات الوادي الذهبي المتدفّق، فكان المنظر بهيجاً فاتناً، وهكذا جاءت هذه القصيدة فيضاً من (وحي العقيق) في تلك الأمسية الزاهية.

وقد أورد الدكتور «عبد اللّه أحمد باقازي» في دراسته «عبد القدوس الأنصاريّ

٧٤ ديوان الأنصاريّات ص٤.

٧٥ ديوان الأنصاريّات ص٧.

شاعراً»، قوله: «تصل أبيات قصيدة: «وحي العقيق في يوم انهماره» إلى ما يقارب «ستة وثلاثين بيتاً» وهي أطول قصائد الأستاذ الأنصاريّ ـ نَفَساً شعريّاً ـ وأكثر عدداً في الأبيات...».[٧٦]

أجل إن عدد أبيات القصيدة ستة وثلاثون بيتاً، لكنها ليست أطول قصيدة في ديوان الأنصاريّات، لأن قصيدة «نجم يهوي»[٧٧] والمثبتة في ديوان «الأنصاريّات» يبلغ عدد أبياتها ستة وستين ستاً شعرياً، وهذا الأمر على جانب كبير من الأهمية.

يقول الشاعر في قصيدة «وحي العقيق في يوم انهماره»:

هذا العقيق وقد همى متبسّماً ... طلق المحيا شادياً بسروره[٧٨]
وتراه في لألائه متلفّقاً ... ينساب بين سهوله ووعوره
تتكسّر الأمواج فوق صخوره ... فتئنّ من تأثيره وعبوره
وتهبّ من جنباته نسماته ... فتفوح عطراً منعشاً بعبيره
وتحفّه أشجاره مزدانةً ... بُنوارها المفترّ من تأثيره
حرّاته السوداء أشرق وجهها ... وتهلّلت بقدومه وسروره[٧٩]
خفّت تعانقه وتشكو بؤسها ... وشحوبها من هجره وحروره[٨٠]

وكعادة الشاعر في رسم الصورة الجمالية للطبيعة، يسقط من رؤاه على ظلال الأشياء فيبعث فيها النشاط والحركة والحيوية، ويجسّها لوحةً رحبةً، تضجّ بالحياة. فها هو «وادي العقيق» بصورته المشرقة، والدليل على ذلك تبسُّمه وإشراقة وجهه، وهذا التعبير المفعم بسروره وفرحه. وإنه يوزّع فرحه وسروره وبهجته على جنبات السهول، ما سهل منها وما صلب.

٧٦ انظر: عبد القدوس الأنصاريّ شاعراً ـ د. عبد الله أحمد باقازي ص١١١.

٧٧ ديوان الأنصاريّات ص٦٧.

٧٨ همي الماء والدمع يهمني همياً وهيماناً: سال بر وهمت العين: صبّت دمعها.

٧٩ حرّاته السوداء: مفردها حرّة: الأرض ذات حجارة نخرة سوداء. والجمع حرّات وحرارٌ.

٨٠ ديوان الأنصاريّات ص٧ـ٨.

ثم يرسم لنا حركة الأمواج، ويعكس على صخوره صفة الإحساس بالأنين والتوّجع لشدّة حركة مرور الأمواج. لكنّ الإحساس بمنظر الوادي الجميل، والمتعة بما يبعث من نسيم رقيق، وعطر منعش، تجعل الشاعر متفائلاً ومبتهجاً ومسروراً بذلك كله، وبما يحيط به من الأشجار التي تفتقت براعم أغصانها عن زهر أبيض.

ثمّ يعود الشاعر لاستنطاق الجمادات، وجعلها مشبوبة بالنشاط والحركة والمشاعر، فحجارة الوادي فرحة مسرورة لأنها سيتحقّق لها الارتواء، بل إنها في حركةٍ تشبه حركة الهائم المشوق في الحب، إذا ما دنا منه مَنْ يروي له ظمأه الروحي، وهو في الوقت نفسه يبدو عنصر هدم لكل صور الجفاف والنضوب. والدليل على ذلك سيطرة الوادي على عناصر الهدم المتمثّلة في شدة الشوق المرتسمة على الحجارة، وفي البؤس والشحوب والهجر، وهذا ما نتلمسه في البيتين الآتيين من قول الأنصاريّ:

حرّاته السوداء أشرق وجهها　　　وتهللت بقدومه ومروره
خفّت تعانقه وتشكو بؤسها　　　وشحوبها من هجره وحروره[81]

ويستمرّ الشاعر في رسم الصورة الجماليّة لوادي العقيق، ويتوضّح ذلك من خلال الأبيات الآتية في هرم القصيدة:

اللّون يحكي التبر في لَمَعانه　　　وصفاء صفحته ونقش سطوره
والشمس تغضي طرفها مفتونةً　　　بجماله الخلّاب في تصويره
حتى إذا ما استيأست من أسره　　　سقطت معنّاةً وراء بروره
فرنا له بدر السّما متطلعاً　　　وأطلّ مشتاقًا لِلَثمِ ثغوره[82]

كما يستمرّ في أبيات أخرى من القصيدة ذاتها.

ثمّ ينقلنا الشاعر بعد ذلك إلى لوحة التناقض في هذه القصيدة، فهو يعلم أنّ الحياة والأشياء لا تدوم على حال، بل هي دائماً في تغيّر مستمر، فالوجه المشرق الباسم يقابله الوجه الكالح العابس، وساعات السعادة والهناءة تقابلها ساعات الحزن والألم،

---

٨١ ديوان الأنصاريّات ص٨.

٨٢ ديوان الأنصاريّات ص٨.

وكأنّ الأنصاريّ يعيد على أسماعنا ما سجّله «البحتري» في قصيدته «السينيّة» في «وصف الإيوان» يوم كان إيوان «كسرى» يضجّ بالحياة والحركة وتخضع لجبروته الهامات، وتقوم حوله صور الحضارة والعز، حتى إذا أعمل الزمان فيه فعله، أحاله إلى أطلال دارسةٍ، فبدأ البوم ينعق في أطرافه، والوحش يسرح في جنباته، وتحوّل أمره إلى مأتم بعد عزّ عامر. يقول البحتري:

فكأنّ «الجرماز» من عدم الإنس ... وإخلاله بَنِيَّةَ رمس
لو تراه علمت أنّ الليالي ... جعلت فيه مأتماً بعد عُرس[٨٣]

وهذا الوادي «وادي العقيق»، حيث كان الإنسان يقيم حضارته، حول موارد الماء، لم يسمح الزمن بدوام إشراقته الباسمة، ولم يسمح بديمومة حركة الأمواج فوق صخوره، تحفّه الأشجار المزدانة على جنباته، أو لتسرق منه الشمس نظرات الفتنة الساحرة، أو... فها هي حال الوادي يوم نظر إليها الشاعر حقيقيّة أمام عينيه، وكأنّ الصورة الأولى كانت من رجع الخيال، أو هكذا يجب أن تكون حقيقة. يقول الأنصاريّ في قصيدته:

ويجيش بالآلام كامنة به ... فيصوغها عقداً على مهجوره
يرثي لماضيه الجميل بشعره ... ويسجّل المأساة في تكريره
اسمعه في زفراته متلعثماً ... وانظره في ونباته وعثوره
تجد الأسى مستجمعاً في صدره ... ويكاد ينفثه على معموره
هذا العقيق وقد همى متجهماً ... يحكي لنا مأساته بزفيره
هذا العقيق وقد همى متألّماً ... يفشي لنا أسراره بزئيره
يهفو لمن يهب الحياة سكونه ... فيشيد محطوماً هوى من دُوره
يهفو لمن يزهى بفضل صفاته ... فيتمّم المنقوص من مقصوره
يهفو لمن يرنو لما في سوحه ... يستكشف المخبوء من مطموره
يهفو لمن يوليه عطفاً مبهجاً ... يسمو له المنظور عن مخبوره
يهفو لمن يكسو رباهُ بسندس ... يزهو به المحلوّ عن مأثوره
يهفو لمن يُعنى بخصب جوائه ... حتى يفوح به نديُّ زهوره[٨٤]
يهفو لمن يُعنى بتبر ثراه في ... أرجائه ليدوم (فيض سروره)[٨٥]

٨٣ ديوان البحتري جـ٢

٨٤ جوائه: الجواء ـ بكسر الجيم ـ الوادي الواسع.

٨٥ ديوان الأنصاريّات ص١٠ـ١١.

ماضيه الجميل المشرق. فكل ما فيه اليوم يوحي بجفاف نضارته وشحوب لونه، وإنّ منظره الآن يحدّثنا عن مخبره. وكل ذلك نتلمّسه من خلال تعابير قول الشاعر: (يجيش بالآلام، يرثي لماضيه الجميل، يسجّل المأساة، اسمعه في زفراته، عثوره، الأسى في صدره، همى متجهمّاً، همى متألماً، يهفو لمن وهب الحياة،...

وهناك دلالات لغوية أخرى في مفردات الأبيات، فالفعلان: (همى، يهفو) يدلاّن على شدّة الشّوق والتعلّق إلى حدوث ردّ فعل، وهذا الأمر متعلّق بما تحققه الأفعال: (يشيد، يزهى، يوليه عطفاً، يكسو، يخصب).

إنها عودة نحو الحلم الذين اندثر من صفحات الماضي المطوية، وهي دعوة من الشاعر إلى البناء والإعمار، وعودة الحياة عامرة على جنبات هذا الوادي، وهذا ما يدعو إليه الشاعر في قوله:

يهفو لمن يُعنى بتبر ثراه في — أرجائه ليدوم (فيض سروره)

وهذا الوجه الثاني من القصيدة، يعيده الشاعر من جديد في رسم الصورة ذاتها في قصيدته: «وقفة في وادي العقيق» التي نظمها بشكل موشّح أندلسي في منظر حجازي، وهذه بعض أبياتها:

وقف الشاعر في وادي العقيق — في أصيلٍ كالعقيق الذهبي
وإذا الشاعر يهمي بعقيق — مسبلٍ من ماطرات الحبب
ما لذا الوادي البهيج الفاتن — قد بدا عطلاً من الحلي البديع؟!
أقفرت آطامه من شادن — كان يوحي بهجةً حين الطلوع
وخلت أرجاؤه من لاحنٍ — يرسل اللّحن كأطيار الربيع
حلّ حكم الله في «دار العقوق» — إذ براها غرضةً للنّوب
فخيال الشوم في لمع البروق — ونذير الرّعب طيّ الرغب
أيّ وادٍ مثل ذا الوادي الجميل — لم يتوّج هامه بالشّجر
أيّ وادٍ مثل ذا الوادي الصّقيل — لم تكلّل حافه بالزّهر؟!
أي وادٍ مثل ذا الوادي العليل — لم تَمُجْ أحياؤه بالسّمر؟!
يا (عقيقي) أنت مهضوم الحقوق — ولذا يا (شعر) فيه انسكب

وإذا لم يك في الشعب شفيق فلتذب شوقاً لماضي الحقب...
كم قصورٍ شيّدت زاهيةً فيك تشدو (حلقاً) في الرّونق
وعيون نبثت جاريةً في ربا واديك هذا الخلق
وبلورٍ أوريت ساسبيةً في حمى تربك هذا المشرق
وشباب ضمّخوا منك الخلوق نُخُبٌ من نُخبٍ من نُخَبِ
عصف الدهر بهم عصف المحيق وبدوا لي في ثراك الطّيب
ربّ ما هذي الطلول الدارسات؟! أتراها اندرست من فِتَنِ؟!
ربّ ما هذي العيون اليابسات؟! أتراها يبست من حزن؟!
ربّ ما هذي الرّبوع العابسات؟! أتراها عبست من شجن؟!
ذكرياتٌ مثّلت لي في العقيق! خفق القلب لها من وصب
حبست آلامها دمعي الطليق رُبَّ حُزن حابسٍ للنّدب
حيّ أملاكاً كراماً من بني عبد شمس ملأو الدنيا حبور
فإذا الوادي بعمران غني إذ غدا مرتع شبّانٍ وحور
يتجلّى حسنه للأعين صفحةً غرّاء زينت بالقصور
ودها دولتهم برحُ الفتوق فاختفى ذاك الجمال اليعربي
وعرت آلامهم كلّ العروق ومن الجملة (وادي يثرب)[٨٦]

وحول هذه القصيدة، كتب الدكتور «عبد الله أحمد باقازي»، يقول:

«... تجسّد القصيدة ظاهرة الوصف حيث يبدو «العقيق/ الوادي»، بين واقعين: واقع قديم كان يموج فيه بالحياة والحركة والنبض الجمالي المتدفق، وواقع حاضرٍ قافر، جعل الشاعر يقف عليه وقفة المتسائل الحزين:

ما لذا الوادي البهيج الفاتن قد بدا عطلاً من الحلي البديع
أقفرت آطامه من شادن كان يوحي بهجةً حين الطلوع

ويتابع قائلاً «... وهذه «الوقفة» تذكّرنا بوقفة الشعراء الجاهليين على «الطلل» متسائلين حزانى، ولعل لفظة: «آطام»، «شادن» تعمّق من مفهوم الموقف على «مكان

٨٦ ديوان الأنصاريّات ص١٣-١٧.

قفر يشبه الطلل، «فالآطام» «القصور، أو الأبينة المرتفعة»، و«الشادن»: من أولاد الظباء الذي قوي مطلع قرناه، واستغنى عن أمه.

ولطالما تعرّض الشعراء الجاهليون للظباء والبقر الوحشي والعين وغيرها في حديثهم عن قفر الطلل، ومن زاويةٍ أخرى تعكس هاتان اللفظتان: «آطام»، و«شادن» ثقافة الشاعر اللغوية، وهضمه للتراث الشّعري، وإحاطته الرائعة بذلك...».[٨٧]

وفي القصيدة المذكورة «وحي العقيق في يوم انهماره» استرعت انتباهي لفظة من التراث، بما أن الدكتور «باقازي» قد أشار إلى لفظتي «آطام» و«شادن». ففي القصيدة المذكورة، ذكر الأنصاريّ قوله:

هذا العقيق وقد همى مترنّماً — *يشدو لنا بقطينه وقصوره*[٨٨]

فلفظة «قطينه» لا نرى لها استخداماً لغوياً إلاّ في نماذج قليلة من الشعر العربي، بل لعلّ الذي استخدمها في الشعر القديم هو أحد روّاد الحداثة اللغوية في شعرنا العربي في العصر العباسي، هو الشاعر الحكيم «أبو تمّام»، في قوله:

بنّ الجلاد البنّ فهو دفين — *ما إن به إلا الوحوش قطين*[٨٩] [٩٠]

وقصيدة الأنصاريّ «وقفة في وادي العقيق»، هي موشّح أندلسي في منظر حجازي، وهذا يعني تأثر الشاعر الأنصاريّ بنمط الموشّحات الأندلسية.[٩١]

---

٨٧ عبد القدوس الأنصاريّ شاعراً ـ د. عبد الله أحمد باقازي ص٣٦.

٨٨ ديوان الأنصاريّات ص٩.

٨٩ ديوان أبي تمّام ص٣٠٧ ـ ضبط وشرح: شاهين عطية ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١.

٩٠ القطين: الإمام والحشم والخدم والأتباع وأهل الدار.

٩١ الموشّحات: الموشّح: فنٌّ جديد استنبط بالأندلس، وخولفت فيه القواعد المرعيّة في أوزان شعر وقافيته. أما أساليب نظمه فهي تعتمد على الأقفال والبيوت في تركيب يختلف باختلاف الأنواع.
أما مخترعها فهو: مُقَدّم بن معافر الغريري. وبرع بعده في هذا الفن كثيرون كعبادة القزّاز، والأعمر الطُّليطلي، وابن باجة، وابن سهل وابن الخطيب. وسبب نشوئها هو

كما نلمح عند الشاعر الأنصاريّ ظاهرة التكرار، وهي على أنواع ثلاثة كما يتضح لدينا: فهناك ظاهرة التكـرار الجُمَلي، كقوله من قصيدة «وحي العقيق في يوم انهماره»:

هـذا العقيـق وقـد همـى متبسّـماً ... طلق المحيّـا شـادياً بسـروره [٩٢]
هـذا العقيـق وقـد همـى مترنّمـاً ... يشـلو لنـا بقطينـه وقصـوره
هـذا العقيـق وقـد همـى متأرّجـاً ... يشـلو لنـا بحياتـه وشـعوره [٩٣]
هذا العقيـق وقـد همـى متجهّماً ... يحكـي لنـا مأسـاته بزفـيره
هـذا العقيـق وقـد همـى متألّمـاً ... يفشـي لنـا أسـراره بزئـيره [٩٤]

وفي قصيدة «وقفة بوادي العقيق» قوله:

أيّ وادٍ مثـل ذا الـوادي الجميـل ... لـم يتـوّج هامـه بالشّـجر؟!
أيّ وادٍ مثـل ذا الـوادي الصّقيـل ... لـم تكلـل حافـه بـالزهر؟!
أيّ وادٍ مثـل ذا الـوادي العليـل ... لـم تَمُـجْ أحيـاؤه بالسّـمر؟! [٩٥]

وقوله:

ربّ ما هذه الطلول الدارسات؟! ... أتراهـا اندرسـت مـن فِتَـن؟!
ربّ ما هذي العيون اليابسـات؟! ... أتراهـا يبسـت مـن حـزن؟!
ربّ ما هذي الربوع العابسـات؟! ... أتراهـا عبسـت من شـجن؟! [٩٦]

احتكاك العرب بالأدب الغـاليّ الأسباني، ومراعـاة مطـاليب الغنـاء. وكـان لهـا انتشـار عظيم. وقد تولّد منها الزّجل العامي.

انظر تاريخ الأدب العربي ـ حنّا الفاخوري ص٥ـ٨ ـ الطبعة التاسعة.

٩٢ ديوان الأنصاريّات ص٧.

٩٣ ديوان الأنصاريّات ص٩.

٩٤ ديوان الأنصاريّات ص١٠.

٩٥ ديوان الأنصاريّات ص١٤.

٩٦ ديوان الأنصاريّات ص١٦ـ١٧.

وهناك أيضاً ظاهرة التكرار اللفظي، كما في قوله:

هـذا العقيـق يبـين في مطويّـه حكمـاً تمـازج حزنهـا بحبـوره
هـذا العقيـق يـدقّ في إيحائـه ويعير ذاك الوحـي سمع خبيره
انظـره في إشـراقه متقلّـداً درر الجمال تضيء سود صخوره
انظره يوحـي للشّـجيّ مباهجـاً ويريح عنـه شـجونه بخريـره[٩٧]

وقوله من قصيدة «الشاعر والغيم العابر»:

فـالأراضي التـي تنـاثرت فيهـا كلها عـن شـذاك حـي وراض
والأراضـي التـي تجـافيت عنهـا قد قضى باحتوائها أيّ قـاض؟[٩٨]

كما نلاحظ ظاهرة التكرار اللفظي المتجانس، من خلال المفردات الآتية من قصيدة «وحي العقيق في يوم انهماره»: (وعوره ـ عبوره/ مروره ـ حروره/ زفيره ـ زئيره/...).

ومن خلال المفردات الآتية من قصيدة «وقفة بوادي العقيق»: (الجميل ـ الصقيل ـ العليل/ الترب ـ التبر/ الدراسات ـ اليابسات ـ العابسات/ اندرست ـ يبست ـ عبست/ بنى ـ غنى/...).

ومثل هذا التجانس يسمى بالتجانس اللفظي الناقص.

ويرى النّقاد، أن سرّ الجمال الفني في الجناس يرجع إلى أصل نفسي لا يخرج عن نظرية «تداعي الألفاظ وتداعي المعاني» في علم النفس، فهناك ألفاظ متفقة الاتفاق كله، أو بعضه في الجرس الموسيقي بحيث تذكّر الكلمة أختها، كما يولّد المعنى الأوّل معنى ثانياً وثالثاً وهكذا، وهذه الناحية النفسية هي التي توضح لنا كيف يأتي الشاعر بالجناس اللفظي في سهولة ويسر إذا كان عالماً بلغته، محسّاً بذوقها، وأسرار جمالها.

وقد أكثر الشاعر من استخدام الجمل الإنشائية، كقوله:

٩٧ ديوان الأنصاريّات ص٩.

٩٨ ديوان الأنصاريّات ص٥.

آيهـا الغيـم يـا بـن مـاء البحـار *لِـمَ تبكـي بلمعـك المـدرار؟!* [٩٩]

وقوله:

أنـت يـا غيـم في سـمائك نَـوْرٌ *نظمتـه يـد الإلـه الكبـير* [١٠٠]

وقوله:

انظـره في إشـراقه متقلّـداً درر الجمـال تضـيء سـود

وقوله:

اسـمعه في زفراتـه متلعثمـاً وانظـره في وثباتـه وعثـوره [١٠٢]

وقوله:

مـا لـذا الـوادي البهيـج الفـاتن قـد بـدا عطـلاً مـن الحلـي

وقوله:

أيّ وادٍ مثـل ذا الـوادي الجميـل لـم يتـوّج هامـه بالشّـجر؟! [١٠٤]

وهي غير قليلة في القصائد، وأساليب الإنشاء لا تحمل معنى لغوياً فحسب، بل توحي بدلالات شعورية تتجاوز هذا المعنى اللغوي، وتعبّر عن الشعور المسيطر على الشاعر، والجو النفسي الذي يلقي فيه الكلام.

أما القوافي فقد نوّع الشاعر في استخدامها أيّما تنويع، فهي مناسبة لغرض القصيدة، وموحية بجماليتها، وموزّعة ما بين الأصالة والتجديد التقليدي. ويجب ألا يخفى علينا، أن موضوع القصيدة هو ـ غالباً ـ الذي يفرض نوعية القافية (رائية ـ هائية ـ

---

٩٩ ديوان الأنصاريّات ص٣

١٠٠ ديوان الأنصاريات ص٤.

١٠١ ديوان الأنصاريات ص٩.

١٠٢ ديوان الأنصاريات ص٩.

١٠٣ ديوان الأنصاريات ص١٣.

١٠٤ ديوان الأنصاريات ص١٤.

بائية...) حتى تكون موافقة لما يجيش في ذات الشاعر من إفرازات شعورية.

وهكذا الطبيعة في شعور الأنصاريّ: إنها إحساس وحركة وحياة.

٢ـ شعر التأمّل:

كتب الدكتور «خليل الموسى» أستاذ النقد العربي الحديث في جامعة دمشق، قسم اللغة العربيّة، يقول: «ليس في الشعر أجوبة جاهزة أو محددة، وربّما كان أقرب تعريفٍ إلى جوهره: أنّه يُعرّف، فهو عصيٌّ على القياس والتحديد، هو خلاصة من خلاصات الوجود، وإحساسٌ هاربٌ في لحظة غير عاديّة، وأيّ محاولة لالتقاطه، لوضعه على مشرحةٍ، لمعرفة أسراره، لا جدوى منها، لأنّنا نلتقط ما تبقى من آثار هذه اللحظة؛ أمّا اللحظة ذاتها فقد غادرتنا، إنّنا نلتقط الجسد، أما الروح، فهي كالعبير الذي تناثر من بين أيدينا.

والشعر ليس وزناً، ولا قافية، ليس معنى ولا موضوعاً، فإذا كان هو أقرب إلى اللحظات الهاربة من أعماق اللا شعور أو الاختلاجات الإيقاعية التي تسلّلت من الحجاز الوهمي الذي يفصل بين خزائن النفس والواقع، فإذاً: هو أقرب إلى غناء الرّوح للرّوح، وبوح الوجدان للوجدان. ولكن ثمّة أموراً لا بدّ منها في الشعر، وهي أمورٌ متفقٌ عليها تشكّل قناعات لدى الشاعر والدارس والمتلقّي، منها أن الشعر يجذبك إليه، لا فيما يقوله، ولا في القدرة على الوصف أو القدرة على تطويل القصيدة، ولكنه يجذبك إليه في الإشعاعات التي تبدو للمتلقي تارة، وتغيب عنه تارة، في الظلال التي يتركها هذا الأثر أو ذاك في المناخ الشعري...».[١٠٥]

إذاً: نحن الآن نلتقط جسد القصيدة، ونتحسّس خلاصة هذا العبير الذي عبقت رائحته بين الأوراق.

يقول بدويّ الجبل.

---

١٠٥ انظر مقدّمة ديوان «صلاة على روح امرأة» ـ أكرم جميل قنبس ـ الطبعة الأولى ١٩٩٢ ـ دار المجد بدمشق.

سيذكرني بعد الفـراق أحبّتـي ويبقى من المرء الأحاديث والذِّكْرُ
وورود الرّبى بعد الرّبيـع بعيـدةٌ ويدنيك منها في قواريره العطر[١٠٦].

لن تستطيع رؤية الشاعر وهو يقف مادّاً نظره إلى الأفق البعيـد، أو مطرقـاً رأسـه بين يديه، أو متأمّلاً في دقائق الأشياء، حتى نعرف حقّاً أنه لحظة تأمّل.

فالتأمُّل: «هو ثمرة نظرة الذات الشاعرية إلى الحياة والكون».[١٠٧]

إذاً: علينا أن نحكم فعلاً على هذه الثمرة التي بين أيدينـا، وشـاعرنا الأنصـاريّ أبرز لنا هذه الظاهرة من خلال قصائده:

١ـ على منبر التأمّل.[١٠٨]

٢ـ بداية شاعر ونهايته.[١٠٩]

٣ـ من أخلاق الناس.[١١٠]

٤ـ المظاهر والمخابر.[١١١]

في قصيدة «على منبر التأمّل» يقف الشاعر متأمّلاً هذا الكون المحيط به، بما فيـه من أسرار وجماليّات وأحياء، ويحدّد لنا أيضاً زمان هذا الوقوف، إنه في الجزء الأخير من الليل، قبيل ولادة الفجـر، وهـذا الوقـت مـن الأوقـات التـي تعبّر عـن صمـت المحيـط الخارجي تقريباً، لأنّ البشر في هجعة مؤقتة، والحركة نادرة في مثـل هـذا الوقـت، ومـن هنا تتجلّى عظمة الموقف، لأن الصّمت مولّد والتفكير، وهذا مـا قـاد الشـاعر إلى تـأمل هذا الكون المحيط به، فوقـف بـين يديـه قارئـاً في ملكوتـه عظمـة خـالق عظيـم، خلـق الأشياء بترتيب منسّق، وما هذه المخلوقات إلا كائنات تؤدّي دورها في حركـة الحيـاة،

١٠٦ ديوان بدوي الجبل ص٤٢٩ ـ طبعة أولى ١٩٧٨ ـ دار العودة بيروت

١٠٧ عبد القدوس الأنصاريّ شاعراً ـ د. عبد الله باقازي ـ ص١٠٤.

١٠٨ ديوان الأنصاريات ص٢١.

١٠٩ ديوان الأنصاريات ص٢٣.

١١٠ ديوان الأنصاريات ص٢٧.

١١١ ديوان الأنصاريات ص٣١.

سخّرها الله سبحانه وتعالى وجعلها لأجلٍ مسمىً.

يقول الأنصاريّ في قصيدته «على منبر التأمّل»:

في احتضار الظلام في مولد الفجر	علا (منبر التأمّل) شاعِرْ
ورمى نظرة إلى الأفق يكسى	طيلساناً من زاهر النّور باهر
ورنا للنجوم وهي نشاوى	رافعاتٍ فوق السّحاب منابر
راعه أن يُقمن ثمّ احتفالاً	راقصاً، فهي في حماه سواهر
ناضرات الوجوه يرشفن ضوءاً	من (فم البدر) ضاحكات سوافر
فإذا أزمع الظلام (انحساراً)	قوّض الحفل، واختفى كل سامر

إذاً: رؤية الشاعر ممتدة إلى أبعد أفق ومدى للرؤية، وقبّة السماء هي أبعد مدى تتمثّل فيه رؤية الشاعر، حسبما يرى الأشياء أمامه، فهناك سماء، ظلام، نجوم، سحاب، منابر للنجوم، بدر... وهذه الأشياء تمثّل حفلاً بهيجاً، تتجلّى فيه عناصر الاحتفال بصورتها الجليّة الممتعة، وكأنّ كل عنصر من هذه العناصر له دوره الأساسيّ في حيثيّات الاحتفال.

---

(١١٢) ديوان الأنصاريات ص٢١.

ولكنّ تأمل الشاعر، سرعان ما يتلاشى، ويُداهَمُ، عندما يبدأ الظلام بالانحسار، ولملمة آخر خيوطه، لأن الفجر، بدأ يحلّ جدائل الشمس، لتسطع بأشعتها الذهبية، وبهذا، ينتهي زمن الاحتفال، وتختفي عناصره من قبّة السماء.

وثمّة أمرٌ آخر، أوقف الشاعر عن التأمّل، ألا وهو «سماعه صوت أذان الفجر»، وما عليه الآن أن يلبّي دعوة النداء، ليظفر بالغُنم الأكبر، وبهذا ينتهي زمن التأمّل بانتهاء الاحتفال، وبزوال عناصره الكونية. يقول الشاعر:

نظر الشاعر المفكّر للكو — ن ليجلو جماله المتضافر
فرأى (خيمةً) لقد نصبتها — قدرة الله فتنة للنواظر
ودها الكون فكره بسناه — فارتمى في أحضانه وهو حائر

وإذا بالأذان يشلو به نو — نغمة في الآفاق شلو مجاهر
فصحا الشاعر الذي احتار واعتا — م هداه وصاح صيحة ظافر[113]

وفي هذا المقطع ـ كما نرى ـ تظهر مشاعر الشاعر الدينية المتأصلة، والدليل على ذلك إسراعه إلى تلبية النداء، ووقف حركة التأمّل، لأنه لو لم يكن كذلك، ربما كان سيستمرّ في تأمّله ليرى كيفية بدء الحركة فوق هذه الأرض.

وقصيدة الشاعر هذه «على منبر التأمّل» تعيدني إلى قصيدة «قلب شاعر» «لأبي القاسم الشابي» الذي يترك لنفسه عنان التأمّل في فلسفة الحياة والأحياء، حيث يقول:

كلّ ما هبّ وما دبّ، وما — نام أو حام على هذا الوجود
من طيورٍ وزهورٍ وشذا — وينابيع وأغصانٍ تميد
وبحارٍ وكهوفٍ وذُرا — وبراكين ووديانٍ وبيد
وضياءٍ وظلالٍ ودجى — وفصولٍ وغيومٍ ورعود
وثلوجٍ وضبابٍ عابرٍ — وأعاصير وأمطارٍ تجود
وتعاليم ودينٍ ورؤى — وأحاسيس وصمتٍ ونشيد
كلّها تحيا بقلبي حُرَّةً — غضّة السّحر كأطفال الخلود[114]

---

١١٣ ديوان الأنصاريات ص٢٢.

١١٤ يوان الشابي ص١٨٣ ـ طبعة ١٩٨٦ ـ دار العودة بيروت.

أما قصيدة الأنصاريّ «بداية شاعر ونهايته» فنقرأ منها الأبيات الآتية:

(١)

صقل البيـــان فكـــان في الشـــعر ... وحـــي الربيـــع وبســـمة الزهـــر
وحكـــت قصـــائده بروعتهـــا ... ذهـــب الأصيـــل ونســـمة الفجـــر
الطـــير ترقـــص مـــن قصـــائده ... جذلاً وتذهل عن صدى القُمري
وســـما إلى أوج الطمـــوح وقـــد ... بهـــر الـــدراري شـــعره الـــدرّي
مـــا زال في تحليقـــه غـــرداً ... يغزو الفضاء بشعره «الذّري»[115]

(٢)

مـــا راعـــه إلا أن اختنقـــت ... أنفاســـه مـــن شـــدّة الذعـــر
هـــذي عواطفـــه لقـــد كبتـــت ... وتصدّعـــت وهنـــاً علـــى الصّخـــر
هـــذي ســـفينته قـــد ارتطمـــت ... بشـــعاب دنيـــا النـــاس والمكـــر
ذي (الدار) قد ضاقت بما رحبت ... ولـــذاك عُـــدّت (جعبـــة الشّـــر)[116]

(٣)

الشـــاعر الغرّيـــد أصمتـــه ... خـــبر الحيـــاة وســـيرها المُـــزْري
قـــد كـــان يحـــدو شـــعره أمـــلٌ ... واليـــوم حطّمـــه أســـى الخـــبر
قـــد كـــان يحســـب أنّـــه فطـــنٌ ... ملـــك الحيـــاة وحـــاز للسّـــر
واليـــوم أدرك أنّـــه غِـــرٌّ ... مـــا كـــان مطبنـــاً ســـوى القشـــر
واستشـــعر البأســـاء هاجمـــةً ... تعـــدو إليـــه بســـرعة النّمـــر[117]

(٤)

مـــا زال بالأســـمال مشـــتملاً ... متســـكعاً يمشـــي علـــى جمـــر
ليســـت تقيـــة (القـــرّ) أثوبـــة ... والجســـم منـــه اســـودّ بـــالفقر
وتـــاعدت عنـــه الصّحـــاب قِلـــىً ... ومهانـــةً للبـــؤس والضّـــر

---

١١٥ ديوان الأنصاريات ص٢٣.

١١٦ ديوان الأنصاريات ص٢٤.

١١٧ ديوان الأنصاريات ص٢٥.

فــأوى إلى كــوخ بضاحيــةٍ ... وأقـــام فيـــه بقيّـــة العمـــر
وقضـى بـذاك الكـوخ مغتبطـاً ... بوصولـه لحقيقـــة الأمـــر[١١٨]

من خلال الأبيات المثبتة في المقـاطع الأربعة، نستنتج مـا يـأتي، وحسب ترتيب المقاطع:

١ـ الشاعر الإنسان المنقذ، المفعم بالأمل والطموح والإحساس.

٢ـ ارتطام مركب الإنقاذ وآمال الشاعر وطموحاته وأحاسيسه بصخرة الواقع الميئّس، وإخفاقه ـ بالتالي ـ في دفع العجلة إلى الأمام.

٣ـ أغنيات الشاعر للحيـاة والمجد صرخةٌ في وادٍ عميق عقيم ممتلئ بـالأدواء، فماذا ستكون النتيجة إذاً؟ خاصة وأن الصرخة في مناخ لا يقدّر جهود البذل والإبداع.

٤ـ وصول الشاعر إلى محطة البؤس والتشاؤم، وإعلانه مرحلة العزلة عما يحيط به.

وهذه المحطة الأخيرة، التي قادت الشاعر الأنصاريّ إلى العزلـة، تذكّرنـا «بـأبي العلاء المعرّي» «رهين المحبسين»، الذي اتخذ قراراً مشابهاً لهـذا القـرار. لكـن شـاعرنا الأنصاريّ، تخلص من قيده وعزلته، لأنه لم يعلن ذلك إلاّ مؤقتاً، أما الشـاعر «المعـرّي» فقد التزم العزلة، ونفّذ أمرها، ولم يخرج من بيته إلا مرّة أو مرتـين فقـط. وكـان سبب خروجه دفع شرور الأعداء الذين جاؤوا لمهاجمة بلده «معرّة النعمان».

ويجوز لنا أن نستنتج أن خروج الأنصـاريّ مـن هـذه العزلـة، هـو إيمانـه الأكيـد بإمكانية إصلاح الأمور، على حين أن «المعرّي» كان متشـائماً مـن تحقيـق أي إصـلاح لعظمة الأخطاء وفداحة تفشّيها في المجتمع.

ويرتدّ الشاعر عن مورد أمانيه، ارتـداد «أبي القاسم الشّـابي» الـذي ارتطمت طموحاته وآماله بصخرة الحقيقة، إذ لم تكن صيحاتـه في حيـاة الكـون سـوى صرخـات جوفاء لم يجد لها في عالم البشر ارتداداً طيباً، فأنشدها في عالم الطيـور، لأنهـا ــ حسـب

١١٨ ديوان الأنصاريات ص٢٦.

قناعته ـ تفهم معنى الحياة، وتدرك عظمة الإحساس بالعيش الحر الكريم، وذلك في قوله:

سوف أشدو على الطيور أناشيدي   وأفضي لها بأسرار نفسي
فهي تدري معنى الحياة وتدري   أن مجد النّفوس يقظة حس[119]

ومثيله في قول الأنصاريّ:

الطير ترقص من قصائده   جذلاً، وتذهل عن صدى القُمْري
وسما إلى أوج الطموح وقد   بهر الدراري شعره الدرّي
ما زال في تحليقه غرداً   يغزو الفضاء بشعره «الذّري»[120]

إنّ تفاؤل الشاعر في الحياة، يحصده التشاؤم، وإنّ نجاح الشاعر في الحياة، يحصده الفشل، وإنّ اندفاعاته الشعورية تحصدها المعاناة والخيبة. وهذه هي حقيقة الإنسان الفنّان المبدع الذي يُنكر عليه المجتمع إبداعه وفنّه، فيسقط ضحيّةً من ضحايا مجتمع لا يأخذ إلاّ بأيدي الأقوياء.

والنتائج التي توصّل إليها الشاعر مثبطة للغاية، فالبؤس يهجم عليه بسرعة «نَمِرٍ» فاغرٍ فاه، والفقر يتسلّل بخطواته ليغرز مخالبه في صدر الشاعر وعنقه.

إذاً: هذا امتصاصٌ لروح الحياة، وهدمٌ لعوامل البناء، وقضاءٌ على بواكير الأمل الواعد:

واستشعر البأساء هاجمةً   تعدو عليه بسرعة النّمر
ومشى إليه الفقر في شرهٍ   إذْ ضمّه للصّدر والنّحر[121]

تبدو في القصيدة فلسفة الشاعر في إدراك أمور الحياة بأشكالها المختلفة، ونقائضها المتباينة، وأحوالها المتغيّرة.

فأيّ «كناية» أجمل من تشبيه شرور الدنيا بـ (جعبة الشر)؟

---

١١٩ ديوان الشّابي ص٢٤٩ ـ طبعة ١٩٨٦ ـ دار العودة ـ بيروت.

١٢٠ ديوان الأنصاريّات ص٢٣.

١٢١ ديوان الأنصاريّات ص٢٥-٢٦.

وهناك أيضاً القدرة على استخدام المفردات اللغوية المناسبة حسب مدلولاتها، إذ تعبّر عن عمق الرؤية والدراية اللّغوية لشاعرنا الأنصاريّ، يقول:

ما زال بالأسمال مشتملاً ... متسكعاً يمشي على جمر[123]
ليست تقيه (القُرَّ) أثوبةٌ ... والجسم منه اسودّ بالفقر
وتباعدت عنه الصحاب، قلى[122] ... ومهانةً للبؤس والضر[124].

ولا يخفى علينا ما تبرزه قافية القصيدة «الرائية» ـ المكسورة ـ من تعميق هوّة الإحباط الذي حصده الشاعر من أمانيه المفرغة في أرض قاحلة، فسببت له هذا التمزّق المأساوي.

وإن مدلول الحكمة نستخلصه من قصيدة الشاعر في قوله:

ذي (الدار) قد ضاقت بما رحبت ... ولذاك عُدَّت (جعبة الشّر)
من دأبها خدع الغرور بها ... ويشوقها التنكيل بالحرّ
إن جئت تبغي النجح مرتدياً ... بالنّبل والإخلاص والبرّ
أخفقت فيما كنت تأمله ... وكُسيت ثوب الذلّ والفقر[125]

وهذا مدلول يعبّر عن عمق نظرة الشاعر إلى الأشياء، واستقراء نتائجها، فقد وصل إلى قناعة تامة، بأن الدار الدنيا، دار غرور وخداع، وإنّها تنقاد لمن يتعلقون بها، وتنقلب على مَنْ لا يقدّمون لها الولاء.

فالإنسان الناجح الذي يرسم الشاعر صورته، لا يعني ـ أبداً ـ أنه يطلب الدار الدنيا فقط، والدليل على ذلك، اتصافه بالنبل والإخلاص والبرّ، وبسبب هذه الصفات وغيرها، تنقلب الأحداث عليه، لأنه يبدو حالة شاذة في المجتمع، وبهذه الصورة تظهر حكمة الشاعر في أحداث الحياة. بل إن ما يراه الشاعر، هو الذي نعاني منه اليوم في مجتمعاتنا.

---

١٢٢ قِلىً: كرهاً وبغضاً.

١٢٣ الأسمال: سمل الثوب سمالاً: أخْلَقَ: فهو ثوبٌ أسمالٌ.

١٢٤ ديوان الأنصاريات ص٢٦.

١٢٥ ديوان الأنصاريّ ص٢٥.

ونؤكد أن تأملات الشاعر في الحياة والأحياء، تُبرز لنا قدرته على توظيف جانب الحكمة في شعره من خلال قصيدته «من أخلاق الناس» بحيث تأتي القصيدة كلّها موظّفة لهذا الغرض، ويقدمها الشاعر بشكل مقطعات ثنائية تحمل نظام البيتين المنفردين في المبنى والمعنى، تسهيلاً لأداء الغرض المطلوب. يقول الشاعر:

(١)

خلائق هذا الناس تبدو ملوّنه ... وقلّ الذي يصفو ويخلص منهم
وغامضة أحوالهم غير بيّنه ... وأفعالهم تنبيك لا القول عنهم

(٢)

فكم من أخ توليه ودّك خالصاً ... تخال بأنّ الودّ باق وماكث
فما هو إلا أن يقضّي مصالحاً ... يتابعها سرّاً إذا هو ناكث

(٣)

وكم من حسودٍ بات يعتدّ نهشه ... ليروي غلا في فؤادٍ مقرّح
إذا أنت قد قابلته هشّ هشّة ... تنمّ على ود وشوق مبرح

(٤)

وكم وقح قد عاش في الجهل غارقاً ... يقول رعاعٌ: إنه لأديب
وعذرهم ما قد حوى من ذرابةٍ[١٢٦] ... تضلّلهم، والفكر منه جديب

(٥)

وكم ذي رياء يجهل الناس قصده ... يظلّ بأوطان له يتشدّق
إذا ما اجتنى أغراضه داس قومه ... وإن حرموه جاءهم يتزندق

(٦)

وكم أحمق ذي هيئةٍ قد تخاله ... له العقل موفوزاً إذا هو أطرقا
ولكن إذا باحثته متيقظاً ... بدا لك منه أنه عاش أخرقا...

(٧)

وكم من بشوش دائم يستبي[١٢٧] ... مجالسه، والسّم يوشك ينقط
له ملمس ليّنٌ وفي القلب سمّه ... ألمْ ترَ لين الصّلّ[١٢٨]، والصّل أرقط؟[١٢٩]

---

١٢٦ ذرابة: سلاطة اللّسان وحدّته.

١٢٧ يستبي مجالسه: يأسر جلساءه بما يقول ويتحدّث.

١٢٨ الصّلّ: الحيّة والداهية. والجمع أصلالّ.

١٢٩ ديوان الأنصاريّات ص٢٧-٢٩.

حكمة الشاعر في النّص من نتائج تجاربه وتأملاته في الحياة، لأنه يخبرنا عن أشياء حدثت، والدليل على ذلك استخدامه لـ «كم الخبرية» مرّاتٍ عديدة، لأن من مدلولاتها أنه «لا يُسأل بها عن شيء، وإنّما يخبر بها عن الكثرة وتكون بمعنى كثير ولا تستعمل إلا في الإخبار عمّا مضى...».[١٣٠]

«... وبالتالي، يمكن أن يقال: إن استخدام شاعرنا الأنصاريّ لـ «كم الخبرية» مكررة في مستهل كل بيتين، قد أعطى دلالته في الإشارة إلى «كم» الظواهر الإنسانية السيئة، والتأكيد على سلبيتها وقتامتها النفسية واللونية إنسانيّاً واجتماعياً...».[١٣١]

ويلاحظ أن حروف القوافي التي استخدمها الشاعر في قصيدته (الميم - الثاء - الحاء - الباء - القاف - الطاء) كانت وعاءً لشحنات المعاناة التي يفرغها الشاعر من صدره. كما أن الكثير من كلمات القوافي ذاتها كانت دليلة على معاني الأسى والألم التي يكتوي الشاعر بحرارتها: (ناكث - مقرّح - مبرّح - حدب - يتشدّق - يتزندق - أطرقا - أخرقا - ينقط - أرقط...) ومن الملاحظات أن هذه المفردات كلّها تدل على معاني الفشل والألم والخيبة والتشفّي، والوحوم، والتلوّن، والغدر...

وتأتي قصيدة «المظاهر والمخابر»، لتعزّز رؤية الشاعر في قصيدته «من أخلاق الناس». بل يبدو أن القصيدتين من هواجس رؤية واحدة، لأنهما تتداخلان كثيراً في مضمونهما.

ففي القصيدة، يخبرنا الشاعر عن تجربته مع إنسانٍ، اتخذه صديقاً له، وأظهر له

---

١٣٠ معجم الأدوات النحوية - د. محمد ألتونجي - ص٨٩ - الطبعة السادسة - دار الفكر بدمشق ١٤٠٠هـ ١٩٧٩م.

١٣١ عبد القدوس الأنصاريّ شاعراً - د. عبد الله باقازي ص٢٧.

من ضروب الإخلاص والوداد والحبّ، حتى أصبح قريباً إلى نفسه، وكأنه ظِلّه الذي يمشي معه. لكنّ هذا الصّديق الذي لازم الشاعر، ونال من وصاله الشيء الكثير، تبطّن العداوة الماكرة الخبيثة، وكان يلازم الذين هم في موقع العداء مع الشاعر، ويساعدهم عليه، ويثبّت من مواقفهم، وتنكّر للجميل والمعروف والإحسان والوداد الخالص الذي أفرزته مشاعر شاعرنا الأنصاريّ. وفجأة يكتشف الشاعر أن صديقه الذي أخلص له ـ كان على ما كان عليه من المكر والعداء والمراوغة، ولم يَرْعَ ذمّة أو يحفظ عهداً، فانصرف كاشفاً عداوته، وترك الشاعر يعاني من ضروب المعاناة الرّوحية والشّكوى الذاتية لما تلقّاه نتيجة إحسانه وموقفه النبيل من معاني الإنسانية، يقول الأنصاريّ:

رُبّ خلٍّ أضفيت بُرْدَ ودادي … فوقه، واتخذته لي ظلّاً
كم أواسيه بعد أن ربط الو … دّ، عراه، كما أواسيه قبلا
كان يخفي عداوتي وّيرني … أنه الخِلُّ قد تمثّل نبلا
ويجاري عِداي سرًّا وينكيه … ـم جهاراً، فكُنْتُ ألحظ هزلا
حينما لاحظ التفطّن مني … مزّق الودّ واجتواني وملّا[132]

وهذا المقطع يذكّرنا بما كانت تُكنّي عنه العرب في قولها عمّن يُجاهر غيره بالعداوة «قلب له ظهر المجنّ»[133]، إذ إن هذا المثل «يُضرب لمن كان لصاحبه على مودّة ورعايةٍ ثمّ حال عن العهد الذي كان بينهما».[134]

ثمّ يقدّم الشاعر الصورة المعاكسة لذلك، وهي صورة الإنسان الذي اتخذه عدوّاً، وكان يحذر منه، ويرى في ملامحه ملامح الثعبان الذي يريد أن يفرغ سُمّه في خصمه، بل إنّ كل واحدٍ منهما كان يحمل على الآخر، ويترصّد له كل مرصد، إلى أن دارت الأحداث والأيّام، وكشفت أن ذلك العدوّ ـ بالرغم من كل عداوته وحقده وكيده ـ قد انقلب إلى صديقٍ حميم عند معرفته مخابر الشاعر ومظاهره، وفي ذلك يقول الأنصاريّ:

١٣٢ ديوان الأنصاريّات ص٣١.

١٣٣ البلاغة الواضحة لعلي الجارم ومصطفى أمين ص١٢٩ ـ دار المعارف بمصر.

١٣٤ المصدر السابق ص١٢٩.

وعلو قد كنت أحذر منه ... وأرى منه أفعواناً وصلا
طالما قد أذاقني قطراناً ... من أذى لا يريم أن يستهلا [135]
فتمادى في الكيد لي وتماديـ ... ـت، وكنا ندين عقداً وحلا
صدمته كوارث الدهر يوماً ... فترست دونه مستقلا
أبدل العرف حزنه لي سهلاً ... وتميا بالخصب ما كان محلا
هكذا الناس: أنفس تتردى ... في نفاق، وأنفس لن تقلا
حكمة الله: كم أخ لي اليفو ... حللته نوازع النفس تبلا
وعلو، قد كنت أنفر منه ... نفرة في ملامحي تتجلى
نفحته بعد السموم أخيراً ... نسمات الربيع فارتد خلا [136]

أجل، إنّ مواقف الحياة ومحنها، محكّ الرجال، وهي التي تكشف نوازع بواطنهم على حقيقتها، وما يمثّله الشاعر الأنصاريّ من نفسه، ليس حالة فرديّةً يتعرّض لها الشاعر وحده، وإنّما هو مرض احتماعي متأصّل في نفوس الكثيرين، وأساسه في البشر في مرتكزات أرضيتهم، إن كانت رخوة هشّة، وسريعة متقلّبةً، أو هي قوية متماسكة، عاقلة واعية، تصرّف الأحداث بوجدانٍ عاقلٍ، وهذا ما يوصل شاعرنا في أبياته الأخيرة إلى الحكمة.

ولا ننسى أن قافية الشاعر التي جاء بها (اللاّميّة) وإشباع امتدادها باللام المطلقة، تركت لنفسه أن تأخذ حيزاً من محيطه لإطلاق معاناته وإفرازها بما يريح صدره، ويخفّف من ثقل الأحداث ووقعها على ذات الشاعر.

وبعد: هذا شاعرنا الأنصاريّ في قصائده «التأمليّة»، وإنّني لأرى أن شعرنا العربي كلّه يبدو في مجمله «شعراً تأمليّاً» والسّبب في ذلك أن الشاعر عندما يريد أن يكتب القصيدة في أيّ غرضٍ أو جانبٍ من الجوانب، يترك لنفسه ـ أوّلاً ـ حيّزاً من التفكير والتأمّل في صورة الأمر الذي يريد أن يكتب عنه، ثم يقلبّه في فكره، ويمعن النظر في دقائق أشيائه، ثمّ يقدّم لنا لوحته الفنيّة.

---

١٣٥ يريم: الرَّيْمُ: البَرَاحُ: ما رِمْتُ أفعلُ، وما رِمْتُ المكان، وما رِمْتُ منه: ما بَرِحْتُ.

١٣٦ ديوان الأنصاريّات ص٣١.

إذاً: كلّ شيء في البداية كان تأمّلاً وتفكيراً، ثـم انتقـل إلى حيّز الوجـود لوحـة حركيّة، ومن هنا أصبحنا نقول فيه: إنه شعر طبيعة، أو تأمّل، أو غزل، أو رثـاء... ومـا إلى ذلك.

إذاً: بعد التأمّل، جاء تقسيم الشعر إلى أغراضه وأنواعه.

٣ـ شعر الحُبّ والحرب:

عندما يقترن شعر الحب مع شعر الحرب، تشتبه على الإنسان ـ للوهلـة الأولى ـ أمور فهم الشيء المحبّ، لأن ارتباط الحب بالحرب قد يكون دافعاً نحـو الحـرب ذاتهـا، أو حبّاً نحو العداوة والانتقام، أو حبّاً في السّلب والنّهب ـ كما كان يحدث قديماً ــ ومـا إلى ذلك من هذه المفاهيم.

وقد يكون حبّاً من أجل تحقيق طموحات شخصيّة أو أغراض سياسية، ونحـن لا يغيب عن بالنا ما قاله «أبو الطيب المتنبي» لسيف الدولة الحمداني، حيث قال له:

أنـت طـول الحيـاة لـلرّوم غـازٍ فمتى الوعـد أن يكـون القفـول؟[١٣٧]

هناك حبّ يغمر القلب، وهناك حبّ يغمر العقل، وحب «سيف الدولـة، حـبٌّ عاقل، لأن الحرب لا بدّ لها من تفكير منطقي عقلاني، وحبّه لهـا ليـس حُبّـاً في سـفك الدماء أو الإضرار بالآخرين، بل هو حبّ للذود عن الحمى، والدفاع عن حدود الدولـة الإسلامية، وهو حبٌّ لنفع أبناء أمتـه ورفـع رايتهـم، لأنـه حريـصٌ علـى بنـاء كيـانهم، وتحقيق شخصيتهم بين الأمم.

وهنا، يجـوز لنـا أن نطلـق علـى هـذا الحـب، اسـم (الحـب العـاقل) أو (العاطفـة العاقلة). وليس غريبـاً أن نجـد شـاعرنا الأنصـاريّ ينـزع هـذا المـنزع في شـعره. ولكـن الأنصاريّ، لـم يحمل سيفاً، ولـم يَقُدْ جيشاً، وإنّما أطلق آلة حربيّة أخـرى، هـي (لسـانه وبيانه).

---

١٣٧ ديوان المتنبي بشرح العكبري ـ الجزء الثالث ص١٥٧.

ألـم يكن الشعر لسان حال العربي في حقبة من تاريخنا الغابر؟

ومطامح «الأنصاريّ» لا تتمثّل في قيادة جيشٍ أو حماية حدود، بل هي أهم مـن ذلك، إنها تعني حالة البناء الأساسي من أجل ذلك كلّه. إنها تهـدف إلى بنـاء الإنسـان الذي هو وسيلة تحقيق الغايات والأهداف كلها.

وإن الحب الذي يحمله الأنصاريّ، يدعو إلى عقلنة الدوافـع الإنسـانية، وتهذيـب النفوس حتى تسود المحبة، ويعمّ الأمان الذي ينشده كلّ إنسان.

وما الشاعر في ذلك كلّه سوى نذير حبّ وسلام، يريد للإنسـانية أن تبتعـد عـن العدوانية والظلم والسلب والنّهب، وتجتمع في خندق واحد، هو خندق السلام، خنـدق التسامح الإنساني، وكأن الصورة تعيد إلى أذهاننا شخصية الشاعر الجـاهلي «زهـير بـن أبي سلمى» عندما وقف موقف الرجل الناصح العـاقل مـن حـرب «داحـس والغـبراء» التي كادت تودي بحياة القبيلتين (عبس وذبيان)، فبيّن الشاعر أن الحـرب لا هـدف لهـا سوى طحن الدماء والفرقة.

وقرأنا كيف مدح «هَرِمَ بن سنان والحارثَ بن عـوف»، الرجلـين اللّذيـن كـان لهما شرف إيقاف هذه الحرب، عندما احتمـلا ودفعـا ـ مـن مالهمـا الخـاص ـ ديّـات القتلى من الطرفين، وعمّ الأمن والسّلام.

إذاً: الدعوة إلى الحب والسّلام، تحتاج إلى الحكمة والعقل، لتبصّر الناس بما يمكـن أن يكون من النتائج.

لكنّ رؤى الشاعر الأنصاريّ، ورؤى أمثاله، دائماً تصطدم بالواقع الذي تفرضـه الطبائع البشرية المتناقضة في فهم أمور الحياة. فليس غريباً أن يـرى الآخـرون نقيـض مـا ترى.

وهذا يؤدي إلى النزول في الهاويـة، ويقـود العقـل إلى حـبّ الاعتـداء والانتقـام والشّر، وعندئذٍ تكون صرخات الشاعر في أفقه المترامي صرخات إنسان منقـذ، جـاهد قدر ما يستطيع مـن أجـل إبعـاد البشـرية عـن كـل مـا يوقـع بينهـا الشـحناء والبغضـاء والشرور.

وأمر طبيعي، أن تصطدم رؤاه ـ كما أسلفنا ـ بشرور العقلية الإنسانية الطائشة، فتجعله يئد أحلامه وأفكاره، ويكتوي بلهيب النار التي تلتهم حبه الإنساني، لتطبع على شفاه الأديب الشاعر سؤاله المتكرر: لماذا الحرب بدل الحب؟

وأياً كان الأمر، فالشاعر يظهر دوره في ردّ الناس عن التمادي بالحقد والعدوانية والشّر، من خلال تبصيرهم بالعواقب، ولحرصه على بناء خليّة إنسانية متسامحة، يقول الانصاريّ في قصيدته «الأديب والحرب»:

ربّاه! إنّي للنفوس مهذّب ... زجي الكمال واجتني لهم الوئام

ربّاه! إنّي للحياة منظّم ... شدو على قيثارتي لحن السّلام

ولقد جهدت وما فتئت محاولاً ... رفع البريّة عن مهاوي الاصطدام

تتحطّمت أطياف أحلامي على ... صخر الحقيقة، واكتويت بكلّ حام[138]

وعداء الناس أمرٌ مستحكم في النفوس منذ (قابيل وهابيل)، بل لعلّ الناس قد قُسّموا منذ ذلك الوقت إلى قسمين، قسمٌ يمثّل طريق التسامح والإنسانية والمحبة، وقسمٌ يمثّل الشّر والعدوانية والظلم والأنانية، وكأن السّطو على ديار الآخرين أو أملاكهم أمرٌ مشروعٌ للمعتدين الذين تشرّبت نفوسهم بداء العداء، فأصبح هذا القسم يمثّل الجانب الشرس القوي لأنه رأس الحربة في الاعتداء على الآخرين الذين يمثّلون جانب الأمن والأمان والإنسانية المتسامحة الطيبة. يقول الشاعر في قصيدته «إرهاصات الحرب العالمية الثانية»:

إنّ داء الشّعوب داءٌ عصيٌّ ... هو داء العداء داء الحقود

فمن الناس من قديم بأن يسـ ... ـطوا على الآمنين سطو الفهود

فالطفيف (الخوار) عبدٌ ذليلٌ ... والقويّ (الجبّار) مولى العبيد[139]

ثمّ بين الشاعر أن هذه الحرب، دائماً تتجدّد في أثواب مختلفة، وأعذار مختلفة، فهي إن اشتعلت في بلاد الشرق، فإنها تُلهب كل شيء، وتحمل في طيّاتها الخراب

---

١٣٨ ديوان الأنصاريّات ص٣٥.

١٣٩ ديوان الأنصاريّات ص٣٩.

والدمار والهلاك، وكأنّها ريح (صرصر) التي لا تبقي ولا تذر. وهي إن بدأت في بلاد الغرب، فلا شك أنها ستهدم كل بناء، وتبعثر كل مجتمع قامت دعائمه. وهي بالإضافة إلى ذلك تخلّف الويلات والأحزان والمآتم الإنسانية، وتسلب البهجة والفرح من القلوب والنفوس. يقول الأنصاريّ:

هذه الحرب كلّما قيل ولّت ... أقبلت في جحافلٍ وبنود
هي في الشرق (صرصرٌ) جدُّ، عاتٍ ... وهي في الغرب (معول) التبديد
هي في الشرق (كربة) لعقيم ... وهي في الغرب (عقم) كل ولود
هذه الحرب إن تَسُرْ، فبلاء ... يحشر الناس في جحيم مبيد
هذه الحرب إن تَسُرْ، فوباء ... يسلب الناس نعمة التغريد
هذه الحرب إن تَسُرْ فهي وَبْلٌ ... ممطر بالخراب والتنكيد[١٤٠]

وهذه الأبيات تذكّرنا بقول «زهير بن أبي سلمى» «شاعر الحكمة والحرب والسلام»:

وما الحرب إلا ما علمتم وَذُقْتُم ... وما هو عنها بالحديث المُرَجَّم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً ... وَتَضْرَ إذا ضَرَّيتموها فَتَضْرَمِ
فتعرككم عرك الرّحى بثفالها ... وَتلقَحْ كشافاً ثمّ تحمل فَتُتْئِمِ[١٤١]

ثم يصوّر الشاعر «الأنصاريّ» حالات الموت التي تولدّها الحرب على البشر، وكيف تترك ضحاياها يتراقصون مترنّحين بسكرات الفناء الفاغر شدقيه لالتهام دماء جديدة تنتظر مصيرها. إنها ـ حقّاً ـ مأساة البشرية التي لا يمتثل أشرارها للعقل والمنطق والحق.

ويرى الشاعر أن الصراع من أجل السّلام هو أصعب بكثير من الصراع من أجل الحرب، لأنّ تقييد الدوافع العدوانية، وكَبْتَ جماحها أمرٌ جدّ شاق، فتحيّة إلى أعلام السلام المرفرفة، إذا قيل: أجل، لقد تمّ الوفاق والاتفاق ورفرفت أعلام السلام فوق ربوع الشعوب، وساد الأمن، وتصافحت وتسامحت القلوب، وانتزع فتيل الشرّ

١٤٠ ديوان الأنصاريّات ص٣٩ـ٤٠.

١٤١ شرح القصائد العشر للتريزي ص١٤٠ ـ ضبط وتصحيح: عبد السّلام الحوفي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ طبعة ثانية ١٩٨٧.

من النفوس. يقول الأنصاريّ:

المنايــا يرقصـــن في كـــلّ وادٍ عازفـــاتٍ في رقصهـــا بنشـــيد
والبرايــا مشـــدوهةٌ في انتظـــارٍ لالتهـام النـيران (بيـت القصيــد)
فســلامٌ علــى النســلام إذا مــا قيل: هذا يوم الصراع الشديد[١٤٢]

إنّ رسالة الشـاعر في الحيـاة رسـالة تنويريـة، يحمـل مشـعلها ليهـدي أبنـاء أمتـه، ويحثّهم نحو تخطّي المتاعب والمصاعب والهموم، وإن لم يفعل ذلك، فبئس الفكـر الـذي يحمله، ولا يخدم به قضايا هذه الأمة، لأنه بذلك يضنّ بـبريق أمـل، ربّمـا كـان لـه دوره ليأخذ بالأيدي نحو التقدّم والنهوض، أو التنبيه إلى خطر مُحْدِقٍ، لأن الشعر ـ كما يرى الأنصاريّ ـ شعلة يحملها الشاعر، ويهديهـا لأبنـاء جلدتـه حتى يسـيروا بهـا إلى المجـد الذي يطلبون ويأملون، وإن ضنّ عليهم بسنا لهيبه، أو حاولوا تجاهل ما يرشـدهم إليـه، فإن الهلاك المحتّم لا بدّ واقع.

يقول الأنصاريّ في قصيدته «إغفاءة الشاعر وانتباهته»:

وهكـــذا الشـــاعر، إن يعتصـــم بعزلـــة الفكـــر تـــردّت أُمَـــمْ
وإن يَحِـــنْ منـــه التفـــاتٌ لهـــم أنقذهـــم مـــن دركـــات الحضيـــض
فالشـــعر نـــبراسٌ لمـــن ينشـــدون ذُرا العُـــلا بضوئـــه يرشـــدون
فـإن خبــا مصباحــه بعــض حــين عنهم، فهم من أمرهم في جريض[١٤٣]

إن الشاعر العربيّ، حمل هموم أبناء أمته، منذ أقدم العصور، فنـداءات الأنصـاريّ في قومه تذكّرني بوعي الشاعر العربي «لقيط بن يعمر الإيـادي»، هـذا الشـاعر المثقـف الذي تمتّع بسداد الرأي والغَيْرَة على قومه، وأدرك ـ ومنذ العصر الجاهلي ــ أن الإنسـان

---

١٤٢ ديوان الأنصاريّات ص٤١.

١٤٣ ديوان الأنصاريّات ص٧٨-٧٩.

جريض: الجَرَضُ: الرّيـقُ. جَـرِض بِريقـهِ: ابتلعه بـالجهد على هَـمٍّ. الجَـرَضُ: الغَصَـصُ. أَجْرَضَهُ بريقهِ: أغصَّه. وحالَ الجريضُ عـن القريـض: يُضـرب بـالأمر يعـوق دون عـائق. وجَرَضَه: خنقَهُ.

الأديب والشاعر يحمل رسالة فكرية سامية يجب أن تكون في خدمة أبناء وطنه، فنحن لا ننسى صرخته القومية التي بعث بها إلى قومه، عندما كان يعمل كاتباً عند «كسرى»، وحينما صمّم «كسرى» على غزو قبيلته «إياد»، وأمر «لقيطاً» أن يكتب إليهم كتاباً يطمئنهم فيه إلى نيّات «كسرى» ويستدعيهم إليه، وكان «لقيط» يعرف حقيقة المؤامرة، فكتب إلى قومه يطالبهم أن يتنبّهوا ويحذروا المكيدة، فكتب يقول:

أبلـغ إيـاداً وخلّـل في سـراتهمُ — أنّي أرى الرأي إن لم يُعصَ قد نَصَعا
يا لهف نفسي إن كانت أموركم — شتّى، وأُحكمَ أمرُ الناس فاجتمعا
صونوا جيادكم، واجلوا سيوفكم — وجدّدوا للقسيّ النّبل والشّرعا
يا قوم لا تأمنوا إن كُنتم غُيُراً — على نسائكم كسرى وما جمعا
هو الفناء الذي يجتثّ أصلكم — فمن رأى مثل ذا رأياً ومَنْ سمعا
وقد بذلت لكم نُصحي بلا دَخَلٍ — فاستيقظوا إنّ خير العلم ما نفعا[144]

وتذكر كُتُبُ الأدب أنّ «إياداً»، اختلفت على نفسها، ولم تأخذ برأي «لقيط» فأوقع بهم «كسرى»، واكتشف كتاب «لقيط» فأمر بقطع لسانه.

إذاً: ليست رسالة الأديب سهلة كما يعتقد البعض، إنّها رسالة سامية، ولا تقلّ أدواتها في المعارك عن الآلات الحربية، وإلا لماذا تتسابق وسائل الإعلام اليوم لكسب شعبية أكبر عدد ممكن من الجماهير والاستئثار باهتماماتهم وعقولهم وأفكارهم؟.

٤ـ شعر الوصف:

يمثّل شعر الوصف جانباً كبيراً من شعرنا العربي، وهو الغرض الشعري المتقدّم على غيره من الأعراض الشّعرية، فلقد صوّر الشعراء مظاهر الطبيعة بأحيائها وأشكالها

١٤٤ انظر الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ــ جـ ٢٢ ـ ص٣٥٦ـ٣٥٨ ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت. ـ أو كتاب الأدب والنصوص للصف **الأوّل الثانوي ـ ص١١٥** ـ منهاج وزارة التربية في سورية لعام ١٩٩٠.

وألوانها المختلفة، وصوّروها حيّةً وساكنة، وربما صوّروا عواطفهم والأشياء الموصوفة، وانعكاس أنفسهم فيها، وتأثّرهم بها.

وشعر الوصف: هو الذي يمثّل الصورة الحقيقية لنوازع النفس البشرية، والذات الشاعرية، فلا عجب أن نراه بعد ذلك انعكاساً لأجمل الصور الفنيّة الجمالية التي يبدعها الشاعر، وينضحها من أعماق وجدانه.

«والوصف في كل شيء نوعان، خياليٌّ وحسّي، فالخيالي يعتمد على التشبيه والاستعارة، والحسّي تصويرٌ للموصوف، وذكر أبو هلال العسكري الوصف، فقال: «أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف، حتى كأنه يصوّر الموصوف لك، فتراه نصب عينيك» ويورد ابن رشيق قولاً لأحد معاصريه، يقول فيه: «أبلغُ الوصف ما قَلَبَ السمعَ بَصَرَاً...».[١٤٥]

وقد جسّد الشاعر الأنصاريّ في شعره الوصفي معظم هذه الأشياء، وترك لخياله حريّة التأمّل في دقائق الموصوف، ثم أعطى هذا الموصوف كل ما يحتاج إليه من معاني الوصف، فأصبحت الحياة والحركة تدبّ في الموصوفات، حتى غدت أمام عينيك لوحة جميلة من يدِ فنّان مبدع

وقصائد الأنصاريّ التي تمثّل هذا الجانب من شعره[١٤٦]، هي:

١ـ التالوديّة.[١٤٧]

٢ـ أنين السّانيّة في قباء.[١٤٨]

٣ـ الشيخ والفلاّح.[١٤٩]

---

١٤٥ تاريخ الأدب العربي للدكتور عمر فروخ ص٤٣.

١٤٦ تندرج قصائد الشاعر (الشاعر والغيم ـ وحي العقيق في يوم انهماره ـ وقفة بوادي العقيق) تحت هذا الجانب لأنها تمثّل وصف الطبيعة، ولكننا تحدّثنا عنها في فصل منفرد تحت عنوان «شعر الطبيعة». من هذه الدراسة.

١٤٧ ديوان الأنصاريّات ص٤٥.

١٤٨ ديوان الأنصاريّات ص٤٩.

١٤٩ ديوان الأنصاريّات ص٥٣.

والقصيدة «التّالوديّة»[١٥٠] وصف لحياة البحر ودقائق أسراره، وما فيه من كائنات، ليست شبيهة في عدوانيتها وظلمها بعدوانيّة وظلم الكائن الحي (الإنسان) على سطح الأرض، حتى إن كائنات البحر، أصبحت تخشى على نفسها من عدوانية الإنسانية عليها، وما اخترعته من وسائل للإجهاز على حياتها.

وفي القصيدة شكرٌ للّه تعالى خالق كل شيء، الذي سخّر البرّ والبحر والجوّ لخدمة الإنسان المستخلف على الأرض.

ومن مقدمة القصيدة نلاحظ أن فنّ الوصف عند الأنصاريّ، يعتمد على دقّة الملاحظة التي تُعين على الإلمام بكل قسمات الموضوع وجوانبه... وعلى التصوير الذي ينقل المشهد والإحساس... ولهذا، تكثر عنده الألوان البيانية.

يقول الأنصاريّ:

أضفت الشمس من سناها مِلاءً (قزحياً) على أديم الماء

وبدا البحر في السماء (بساطاً) نسجته يد الصّبا بذكاء[١٥١]

ومن خلال هذه اللوحة البيانية الرحبة البديعة من لوحات التشبيه، وهذه الظلال اللونية التي نسجها خيال الشاعر المبدع، تظهر صور التشبيه بأركانها الحركية الجمالية المشرقة، وقد عكسها الشاعر بعدسته المصوّرة، تاركاً عليها مسحةً من شعوره النابض. ولا شكّ في أنّ «هذا الاستهلال الشّعري المفعم بالجماليّة، يذكّرنا بالديباجة البحترية».[١٥٢]

ونحن بدورنا نظلم الشاعر الأنصاريّ كثيراً، عندما نجعله في وصفه بمرتبة «وصف البحتري» فالشاعر البحتري كان يصف لنا المشاهد، ويصوّرها بدقائقها،

---

١٥٠ التّالوديّة: نسبة إلى الباخرة «تالودي» التي ذكرها الشاعر في مقدمته النثرية للقصيدة.

١٥١ ديوان الأنصاريّات ص٤٥.

١٥٢ عبد القدوس الأنصاريّ شاعراً ـ د. عبد اللّه أحمد باقازي ص٣٧.

ولكنها لم تكن تمتزج به شعوريّاً، ولو أن البحتريّ امتزج بها نفسياً وخلطها بمشاعره، لتنوّعت أساليبه، لأنها لن يكون همّها نَقْل المشهد كما هو. وإنّما نقله من خلال اهتمامات النفس ونبضات الشعور... النظرة للحياة. وفن الوصف بهذا الاتجاه النفسي لم يعرف في الشعر العربي إلاّ في عصرنا الحديث. وهذه بعض أبيات البحتري في وصف بركة «المتوكّل» التي خطّها الخليفة (بِسُرّ من رأى)[١٥٣]، وحشد فيها ألواناً من الجمال العبقري الساحر:

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها ... والآنساتُ إذا لاحت مغانيها
بحسبها أنّها في فضل رتبتها ... تُعَدُّ واحدةً والبحر ثانيها
ما بال «دجلة» كالغَيْرَى تُنافسها ... في الحُسْن طوراً وأطواراً تُباهيها
كأنّ جنّ «سُليمان» الذين وُلّوا ... إبداعها، فأدقّوا في معانيها
خلو تمرّ بها «بلقيس» عن عُرُضٍ ... قالت: هي الصَّرح تمثيلاً وتشبيها[١٥٤]

والبحر عند الأنصاريّ حركة وحياة، فهو إن بدا بوجهه البسّام مشرقاً رحباً، فإنّه في أعماقه يكتنز أسراراً كثيرة، وأنّى لنا أن نكتشف مشاعره النفسيّة، وما يجيش في أعماقه من حياة وأحياء، قد تفوق في أشكالها وأعدادها ما خلقه اللّه على سطح الأرض؟!

وأحياء البحر، ليسوا كأحياء البرّ ـ كما يرى الأنصاريّ ـ فالإنسان على الأرض يخترع مخترعات كثيرة، ويسخّر فكره وعلمه وحياته وماله وجهود الآخرين من أجل صناعات، لا تهدف في حقيقتها إلاّ لإفناء الإنسان ذاته، كما أن من البَشَر مَنْ يحكم فيظلم ويتجبّر ويستبدّ، ويسلك مسالك كثيرة من المكر والخداع والنّفاق لتحقيق طموحاته ومآربه، ولإشباع نزواته الذاتية. والضعفاء من البشر لا بدّ واقعون ضحيّة لهذه المخترعات المبيدة، أو هذه الأحكام الجائرة المستبدّة، ولا مفرّ لهم. أما أحياء البحر، فلم يسخّروا جهودهم وحياتهم وكلّ ما يستطيعون من أجل إفناء كائنات البحر الأخرى، وليس في البحر من يعلن طغيانه واستبداده على مملكة الآخرين، لأن الضعفاء

---

١٥٣ (سُرَّمَنْ رأى): مدينة بناها الخليفة العباسي المعتصم على نهر دجلة.

١٥٤ ديوان البحتري ص٢٤١٦ ـ المجلد الرابع تحقيق وشرح: حسن كامل الصيرفي ـ دار المعارف بمصر.

باستطاعتهم اللجوء إلى أماكن أخرى تقيهم من شرور الأقوياء... وبهذه المقارنات يجسّد الشاعر الأنضاريّ طبيعة حياة الأحياء في كلّ من البرّ والبحر، ولم يكتف فقط بوصف صورة البحر وما يراه الشاعر من أشياء محيطة به أو واقعةٍ عليه، بل جعل نبضات شعوره تستكشف ما وراء سطح الماء. ثمّ إسقاط هذه المقارنة على الحياة البشرية بشكل عام. يقول الأنصاريّ:

أنت يا بحر يا شفيف المحيّا ... غامضُ النّفس، غامضُ الأحياء
إنْ يكُ (البرُّ) مفعماً برياضٍ ... وحياةٍ في غبطةٍ وصفاء
فرياضٌ حويتها وغياضٌ ... وَجِنانٌ حضنت في الأحشاء
لتفوق التي حوى (البرّ) منها ... في عديدٍ وفي حياة نماء
ليس فيهم مَنْ يُتلف العمر سعياً ... لاختراعٍ يسوقهم للفناء
ليس فيهم من يستبدُّ ويُضفي ... شانئيه من مكْرِهِ والدهاء
وبوسع الضعيف منهم هروبٌ ... من قويّ لمعشرٍ نُبلاء[١٥٥]

وبعد أن يشبه الشاعر البحر بالحديقة التي تسقيها قدرة السّماء، يوضّح لنا كيف استطاع الإنسان السيطرة على هذ البحر، وهدده بأفكاره الذريّة وغيرها.

ثم يبدأ بوصف الباخرة (تالودي)، هذه التي هي مليكة هذا البحر، المتهادية فوق أمواجه والتي تبعث في بعض قلوب كائنات البحر الهلع والخوف والحذر، وتسابق بعضها الآخر، فكأنها و(الدرفيل) في حلبة سباق حقيقية:

يا لك اللّه من (مليكة) بحر ... تتهادى في ليله كالضّياء
يرعبُ (الحوت) بالهدير المدويّ ... منك في ضحوةٍ وفي إمساء
ويجاري (الدرفيل)[١٥٦] منك جوادٌ ... سابق للجواد (دون عناء)[١٥٧]

١٥٥ ديوان الأنصاريّات ص٤٦.

١٥٦ الدرفيل: هو حيوان «الدلفين» ـ كما كان يُعرف قديماً ـ «الدُّميري» بقوله: «دابّةٌ تنجي الغريق، وتمكّنه من ظهرها ليستعين به على السباحة. وهو إذا ظفر بالغريق كان أقوى الأسباب في نجاته لأنه لا يزال يدفعه إلى البّر حتى يُنجيه، ولا يؤذي أحداً ولا يأكل إلا السّمك».

وتتجلّى في ذات الشاعر عظمة الخالق الأعظم، الذي سخّر مخلوقات هذا الكون لخدمة الإنسان، وميّزه عنها بالعقل المدبّر، وما هذه إلاّ نعمة ورحمة من اللّٰه سبحانه وتعالى لعباده.

ثم يرجو الشاعر ربّه أن يجعل حياة البشرية حياة سعيدة تسودها المحبة والوئام والإخاء والسلام والسعادة، ويبعد عنهم الشرور والأحقاد والبلايا التي تحيط بهم، وأن يترك هذا البحر خميلةً زاهيةً لا تعكّرها العواصف الهوجاء بأمواجها المتلاطمة:

ربّ أنت الذي مَنَنْتَ علينا ... بعقول تصبو لكلّ ارتقاء
بسفينٍ كأنهنّ قصورٌ ... سائرات في اللجّ كالكهرباء
و(سوارٍ) يقطعن بالنفط بيداً ... في انسيابِ الزواحف الرقطاء
و(جوارٍ) في الجو، يصففن فيه ... كنسورٍ رفّافةٍ بالفضاء
فأفضْ منك رحمة وسداداً ... ينظم الناس في عقود الرّخاء
وأفضْ منك نفحةً من ودادٍ ... ينظم الناس في عقود الهناء
وتوجّه بسفنهم لسلامٍ ... ينقذ الأرض من جحيم البلاء
واترك البحر كالخميلة زهواً ... هادئ الريح هادئ الأرجاء[١٥٨]

وفي قصيدة «أنين السّانية[١٥٩] في قباء[١٦٠]»[١٦١]، ينقلنا الأنصاريّ إلى حدث جديد من أحداث قصصه الشعري، فيحدّد لنا مكان الحدث، إنه أرض «قباء» غوطة المدينة

ـ حياة الحيوان الكبرى: ج١ ص٤٨١-٤٨٢ [نقلاً عن: عبد القدوس الأنصاريّ شاعراً، د. عبد اللّٰه باقازي ص٧٠].

١٥٧ ديوان الأنصاريّات ص٤٧-٤٨.

١٥٨ ديوان الأنصاريّات ص٤٨.

١٥٩ السّانية: الغَرْبُ. وأداتُهُ. والسَّانية: الناقة يُسْقى عليها. وَسَنَتْ تسنو: سَقَتِ الأرض. وَسَنَتِ الدَّابة تَسْنَى: اسْتُقِيَ عليها. وسنا القوم يسنون لأنفسهم إذا اسْتَقَوْا.

١٦٠ قباء: هي غوطة المدينة المنوّرة، وتقع في جنوب المدينة، وهي ذات هواء عليل ومناظر أخاذة. [انظر آثار المدينة المنوّرة لعبد القدوس الأنصاريّ ص١٦٧-١٦٩].

١٦١ ديوان الأنصاريّات ص٤٩.

المنوّرة، كما يحدّد لنا الوقت، إنه «الليل»، ثم يذكر لنا أبطال الحدث القصصي، فهم «السّانية، وحاديها، والمسكين: الصبّ المستهام»، الذي رماه الشوق في هذا المكان، فوجد في نغمات «السّانية وحاديها» منقذاً له من همّه وضيقه الذي هو فيه.

وشاعرنا الأنصاريّ، ذكر في مقدمته النثرية للقصيدة، قوله: «قضى الشاعر ليلة ماتعة في ضاحية «قباء» بالمدينة المنوّرة، في جوّ ليلي بهيج، وقد استيقظ في الليل على نغمات السّانية وحاديها بصوته الرخيم، فأوحت إليه هذه القصيدة...».[١٦٢]

من خلال مدلولات هذا التقديم النثري للقصيدة، وبما أن الشاعر قد قضى ليلته في ضاحية «قباء» ثمّ استيقظ في تلك الليلة على نغمات السّانية وحاديها. يتّضح لنا، أنه هو أحد أبطال الحدث القصصي، أي أنه هو الإنسان الصّب المستهام الذي وجد في هُتاف السّانية وشدو حاديها، نغماً، أسَرَ سمعه وقلبه، وكان منقذاً له من صمتٍ مطبقٍ على نفسه. فإذا بهذا الصّوت يأخذ مأخذه في ذات الشّاعر، ويسري في عروقه ونفسه. فما كان منه إلاّ أن توجّه نحو هذا الصوت المنقذ، الذي جعله يشعر بالارتياح والأمان.

يقول في مطلع قصيدته:

في ظلام الليل ما بين التلول — هتفت سانيّة وسط النخيل
وشدا سائقها مبتهجاً — بسكون الليل في الوادي الجميل
فإذا الشّدو الذي يرسله — فتنة المكروب والصّب القتيل
وسرى الصوتان في الليل معاً — سريان النّور في الجو الصقيل
وهفا نحوهما ذو لوعةٍ — قد كساه الحبّ برداً من نحول
ومشى المسكين في برد هزيلاً — يقصد الشادين في خطوٍ ثقيل
فإذا آهاته تفضحه... — أيّ سيرٍ لمحبّ في ذهول[١٦٣]

وفجأة، يجد «حادي السّانية» نفسه أمام شبح هذا الإنسان الطارق ليلاً، ولا بدّ من أن يصيبه الهلع ريثما يتأكّد من أمره، بينما استمرّت «السّانيّة» مطلقةً صوتها الحزين في أرجاء هذا المكان، وكأنّها بصوتها تبعث الأمان والأُنسَ، فتصبح رمزاً من

١٦٢ ديوان الأنصاريّات ص٤٩.

١٦٣ ديوان الأنصاريّات ص٤٩-٥٠.

رموزهما، فيهتدي من أراد النّجدة والعون، وترتاح نفسه مما كان ينتابه من معاناة؟

يقول الأنصاريّ:

وجم السائق[١٦٤]، إذ قد راعه — شبح الطارق في البرد الضئيل
ومضت سانيّة الحقل جوىً — ترسل اللّحن حزينا في السّهول
يخرق الأجواء في رنّاته — فيفيض الأنس في الوادي العليل
شعرت أنّ الذي قد أمّها — ليس إلاّ مُستهاما في طلول
فلتواس النّضو في جُنح الدّجى — بقِرىً ينعشه قبل الرحيل
واستطاب النّضو في ليلته — لحنها الذاهب بالهمّ الثقيل[١٦٥]

إذاً: إنّ مهمة «السّانية» وحاديها، مهمّة تتمثّل في إدخال البهجة والفرح إلى القلوب الحزينة، وتزويدها بأكبر قَدْرٍ من الأمان، وبالمقابل استمتع هذا الإنسان الهائم الحزين بالأُنسِ والحنان حتى ذهب عنه همّه وغمّه.

وأحداث هذه القصة الشعرية تعيدنا إلى قصيدة «قصة كرم» للشاعر «الحطيئة» لأن الأحداث في القصيدتين متماثلة إلى حدّ ما، فكلتا القصيدتين تبدأ أحداثهما بتصوير الحدث ـ المفاجأة ـ، الذي يبعث الذعر في النفس، ثمّ ما يلبث كلٌّ منهما أن يشعر بالأمان من قبل الطرف الآخر.

ومما يلفت انتباهي أيضاً: أن الظمأ الذي ينشده «الأنصاريّ» لبطل قصّته، هو ظمأ روحي، معنوي، بينما الظمأ الذي ينشده الحطيئة لضيفه هو ظمأ مادّي، إنه الطعام.

يقول «الحطيئة» راسماً صورة مبشرقة رائعة للجود المتأصّل في نفس الإنسان العربي:

رأى شبحاً وسط الظلام فراعه — فلما بدا ضيفاً تشمّر واهتمّا
وقال: هيا ربّاه: ضيفٌ ولا قِرىً! — بحقّك لا تحرمه تا الليلة اللّحما
فقال ابنه لّما رآه بحيرةٍ — أيا أبت: اذبحني، ويسّر له طعما
فبيناهما عنّت على البُعْدِ عانة — قد انتظمت من خلف مِسْحَلها نظما
عطاشاً تريد الماء فانساب نحوها — على أنّه منها إلى دمها أظمأ
فأمهلها حتى تروّت عطاشها — فأرسل فيها من كنانته سهما
فخرّت نحوصٌ ذات جحش سمينةٍ — قد اكتنزت لحماً وقد طبّقت شحما
فيابشره إذ جرّها نحو أهله — ويا بشرهم لما رأوا كَلْمَها يدمى

---

١٦٤ سائق دابة السّانية التي يخرج الماء من أعماق البئر.

١٦٥ ديوان الأنصاريّات ص٥٠.

فباتوا كراماً قد قضوا حق ضيفهم   وما غرموا غرماً، وقد غنموا غنما
وبات أبوهم من بشاشته أباً   لضيفهم، والأمّ من بشرها أمّا[١٦٦]

ومن نقاط الاختلاف بين القصيدتين، أنّ «طارق الليل» الذي وفد على «حادي السّانية» لم يسبب له حرجاً كبيراً، قد يقود به إلى التضحية بابنه «كما هو عند الحطيئة». وتنفرج عقدة «الحطيئة» عندما ظهر على البعد قطيعٌ من حُمُر الوحش، وكان الفوز والفرج عندما وقع أحد هذه الحُمر صريعاً على الأرض، وبهذا تحقّق ما يصبو إليه الشاعر لإكرام ضيفه وحلّ إشكالية أزمته، مما بعث السرور في نفوسهم أجمعين، ولا يخفى علينا أن قصة الحطيئة مستوحاة من قصص القرآن الكريم.

ومن الشعراء الذين اهتمّوا بالحدث القصصي المشابه لما ذكرنا، الشاعر «مُرّة بن محكان» أحد شعراء الدولة الأموية الذين عاصروا جريراً والفرزدق.

إذْ كان يرى أن قِرى الضّيف حقٌّ وواجبٌ، والضيوف أبناءٌ لربّ البيت وزوجته، يرعيانهما كما يرعيان أولادهما، ولا تجمعهما بهم إلا رابطة الإنسانية.

ومن قصيدته «حقٌّ وواجب» هذه الأبيات:

أقولُ والضيفُ مخشيٌّ ذمامَتُه   *على الريم، وحقّ الضّيف قد وجبا:*
يا ربّة البيت قومي غير صاغرةٍ   *ضُمّي إليك رحال القوم والقُرُبا*
ماذا تَرَيْنَ؟ أندنيهم لأَرْحُلِنا   *في جانب البيت؟ أمْ نبني لهم قُبَبا*
نصبْتُ قِدْري لهم والأرض قد   *من الصّقيع مُلاءً حلّةً قُشُبا*[١٦٧]

وعلى أية حال: فإن ما قرأناه عند شعرائنا: هو تصوير لمواقف إنسانية مألوفة في شعرنا العربي، تلتقي في مفاهيمها وأغراضها، وتختلف في مكانها وزمانها وبعض عناصرها.

ومن قصيدة الأنصاريّ «الشيخ والفلاّح» نقرأ الأبيات الآتية:

---

١٦٦ انظر القصيدة في كتاب الأدب والنصوص للصف الأوّل الثانوي ص١٤٤ ـ منهاج وزارة التربية في سورية ـ ١٩٩٠.

١٦٧ المصدر السابق ص١٧٧. [في ترجمته بالأغاني لم نعثر على قصيدته].

(١)

١- رأى الزرع مخضّراً بحقلٍ مُنَضَّدِ أراق به المجهود في الفكر واليد
٢- زمرّدةٌ خضراء قد نُصِبَتْ على منصٍّ لُجَيْنٍ في إطار مُعَسْجَدِ
٣- ترى الماء إذْ ينساب في جنباته كَعِقْدٍ من (الألماس) في كفّ مُرْعِدِ
٤- وقد بَسَطت شمس الأصيل شعاعها عليه فرقّ الحسن في زهره النّدي
٥- وللطير في أوكاره حفلاته فما بين مختال وبين مغرّد
٦- تماوج فيه (الأبُّ) [١٦٨] ريّان ناضراً إذا جُرٌّ أعلاه تسامق في غد
٧- وللأثل [١٦٩] في حافاته وقفاته بقاماته الهيفاء في كلّ مرصد
٨- فما شئت من جوٍّ زكيٍّ معطّرٍ وما شئت من حُسْنٍ وظلٍّ ممدّد
٩- تطلّ عليه من قريبٍ شواهقٌ لقد جُرّدت مِ العشب كلّ التجرّد
١٠- أرادت لتضفي حسنها متجرّداً على حِبِّها: الحقلِ البديع المورّد [١٧٠]

(٢)

١١- وللشّيخ طول اليوم جولة مغرمٍ ببستانه كيما تنّمي محاصله
١٢- لقد زهد الشيخ الهمام حياته وآماله بالحقل تزكو سنابله
١٣- فليس له مَيْلٌ إلى أيّ منصبٍ وليس له همٌّ يبيت يشاغله
١٤- كأنّي به يحيا حياة هنيئة وتهفو لياليه إلى من يشاكله
١٥- وإن يك هذا الناس جُمّاع ثروةٍ فثروته بستانُه ومحاصله [١٧١]

إن الترتيب الجمالي في النّص، يبدأ من أوّل بيت في القصيدة، حيث تظهر أمامنا صورة الفلاح، هذا الإنسان الكادح المسنّ الذي أفنى سنوات عمره عملاً دؤوباً، حتى

---

١٦٨ الأبُّ: الكلأ.

١٦٩ الأثل: شجر يشبه (الطرفاء) إلا أنه أعظم منه وأكرم وأجود عوداً، ولسمّو الأثلة واستوائها وحسن اعتدالها شبه الشعراء المرأة إذا تمّ قوامها واستوى خلقها بها.

١٧ ديوان الأنصاريّات ص٥٣-٥٤.

١٧١ ديوان الأنصاريّات ص٥٥.

يرى بستانه بهذه الصورة البديعة من الجمال والخضرة. كيف لا، وقد سكب في تربته كل ما يملك من جهد وفكر.

ومدلول الفعل «أراق» يدل على إراقة الدم، أما وأن الشاعر قد استخدمه لإراقة الجهد والفكر، فهذا من قبيل تثمين المبذول الذي يكون من أجل هدفٍ غالٍ، حتى غدا البستان بصورته البديعة الجميلة أشبه بزمردة خضراء، وضعت على قطعة من الفضة، محاطة بإطار ذهبي (هذه اللوحة الأولى من التشبيه). ثم إن شكل الماء المتوزّع على جنبات البستان يشبه عقداً من الألماس في يد إنسانٍ خائفٍ، وحركة الماء تشبه حركة العقد في الكف المرتجف، وهذا دليل على الانسياب والحركة القلقة.

وهذا التشبيه من أنواع التشبيه التمثيلي، إذْ إنّ الشاعر قد شبّه صورةً رآها /حركة الماء المنساب فوق التربة/ بصورة تخيّلها، وهي /عقدج الألماس في كفّ إنسانٍ خائفٍ/. وهذا واضح في قول الشاعر:

زمردة خضراء قد نصبت على منـ ـصّ لجين في إطارٍ معسجد
ترى الماء إذ ينساب في جنباته كعقد من الألماس في كفّ

وأمثلة هذا النوع من التشبيه قليلة في الشعر العربي، ونذكر منها قول «السَّريُّ الرفّاءُ»:

وكأنّ الهلال نونُ لُجَيْنٍ غرقت في صحيفةٍ زرقاء[١٧٣]

وقال أحد الشعراء:

تقلّدتني الليالي وهي مدبرةٌ كأنّني صارمٌ في كفّ منهزم[١٧٤]

وقال أبو فراس الحمداني:

والماء يفصل بين روض الزّهر في الشّطين فصلا
كبساط وشي جرّدت أيدي القيون عليه نصلا[١٧٥]

---

١٧٢ ديوان الأنصاريّات ص٥٣-٥٤.

١٧٣ لبلاغة الواضحة لعلي الجارم ومصطفى أمين ص٣٣.

١٧٤ المصدر السابق ص٣٧.

ويستمرّ الشاعر في رسم لوحته البديعة الرحبة، وكأنه يبعث الحيوية والنشاط في أرجاء المكان من خلال الصورة التي يرسمها، فهو يلتقط بعدسته الشّفافة معظم الصّور العاملة والمكملة لتجميل اللوحة /البستان/. فالشّمس ترسل أشعتها الذّهبيّة، وكأنّها بساط موشيّ، تتمثّل صورته في ألوانٍ بديعةٍ من الأزهار المختلفة، وقد توضّعت عليها قطرات من الندى في الصباح مشرق.

وهذه حركة الطيور مرصودة من خلال ما يزهو منها بما وهب من نعمة المكان والجو اللطيف، وما بدأ منها بإرسال زقزقاته وأغنياته الساحرة الجميلة فرحاً وحبوراً.

وفي الأبيات (٦، ٧، ٨، ٩، ١٠) يرصد الشاعر حركة نباتات البستان المتماوجة المفعمة بالحيوية والنضارة الواعدة بمستقبل العطاء والديمومة في الخضرة.

وكذلك صورة (الأثل) التي تعبّر عن الموقف النبيل، حيث تبدو بقامتها المتسامقة، وكأنّها تتحدّى الريح والجفاف والزمن، وكأنّها قد نصبت رَصَداً لصدّ هذه العوامل للمحافظة على نضارة المكان وأجوائه المعطرّة، وظلاله الوارفة، وكأنها في موقف الغَيْرة على حبيبها /الحقل/ الذي يتألّق حسناً وحيوية.

إذاً: لقد جعل الأنصاريّ عناصر الطبيعة تشترك في مهمة الحفاظ على جمالية البستان. وهذه من سمات الشعراء الرومانسيين الذين يشركون الطبيعة في أحداث قصائدهم. فنحن نرى في المقطع الثاني من القصيدة، الأبيات (١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥) أن الشّيخ، الفلاحّ، سعيدٌ بحقله وبما يحقق من محصول، وليس له من الطموحات إلاّ الانصهار في تربة هذا الحقل والمحافظة على صحبتها وديمومتها.

وهذا يعني: أن الشاعر يبرز من خلال القصيدة حرص عناصر الحقل جميعها على هذه الحياة البديعة، وهذه اللوحات الجمالية الممتعة التي تمتزج بالنفس، وتبعدها عن واقعها إلى حين.

وهذه الرؤية ذاتها /الفرار من الواقع واللجوء إلى الطبيعة، ورصد حركتها، وإبراز تفاعلها من سمات الشعراء الرومانسيين أيضاً.

كما أنّ الشاعر اهتمّ برسم الظلال وإيحاءاتها، ومدلولات الألفاظ بما أشاعته من رقّة وعذوبة نابضة، مع لمسات من الخيال المجنّح، الأبيات (٢، ٣...) فجاءت قصيدته لوحة بديعة ذات وحدة عضوية بارزة من خلال مقطعي القصيدة، ومن خلال الجو

النفسي المتناغم مع عناصر الحدث وإيحاءاتها. ثم من خلال التنويع في قافية القصيدة (الدالية ـ الهائية...).

ولا بدّ من القول: إن الوصف في ديوان الأنصاريّ قد استأثر بحظٍ وافر من قصائده، مزج فيها ذاته بعناصر الموضوع وظلاله وألوانه وإيحاءاته ومدلولاته، فجاءت الموصوفات تعجّ بالحركة والحيوية والنشاط، وتبعث في النفس الأمان والهدوء والرغبة الملحّة في اللجوء إلى مثل هذه الأجواء الزاهية المعطرة، التي تُخلّص الإنسان من أدران الحياة القاسية.

٥ـ شعر الرّثاء:

الرثاء، أحد أغصان الشعر العربي المزدهرة منذ القديم، فلا يكاد يخلو عصر من عصور الشعر، إلاّ ويبرز فيه فنّ الرّثاء غرضاً بارزاً بحدّ ذاته.

والسّبب في ذلك أنّ الرّثاء في الشعر، أمرٌ له صلة عميقة بمشاعر النفس البشرية، بعيداً عن أغراض وفنون الشعر الأخرى.

ولقد تميّزت أنواع الرثاء، فمنه ما كان رثاءً للآخرين، سواءٌ أكانوا أقرباء أم أصدقاء. ففي العصر الجاهلي، احتلّت الشاعرة «الخنساء» الصّدارة في هذا الأمر حتى أصبحت تُعْرَفُ بانتسابها إليه. ومفجّر مشاعرها في هذا النوع، أخوها «صخر» حيث جعلت من نفسها عليه «نوّاحة الجاهلية»، ويقال إنّها عميت لهذا السبب.

إذاً: الرثاء في الجاهلية كان تفجّعاً شديداً، وحسرة قاتلة، وألماً بالغاً في أعماق النفس، حتى يكاد الإنسان يقتل نفسه من أجل فقيده.

هذه العاطفة الثائرة، الثائرة بغضب فوضوي، تهذّبت فوضويتها مع بزوغ فجر الإسلام، عندما أصبح مفهوم الموت من المفاهيم الخاضعة لقضاء اللّه وقدره، وأصبح الموت في ساحات المعارك (شهادة في سبيل الله)، فإذا بنا نرى «الخنساء» التي جعلت من نفسها «نوّاحة العصر الجاهلي» تنقشع عن عينيها غشاوة الظلام والهمّ والحسرة والألم، وتعلن تسليمها بقضاء اللّه وقدره، ولا تذرف دمعة واحدة يوم تلقّت نبأ

استشهاد أولادها في معركة «القادسية»، بل اكتفت بقولها: «الحمد للّه الذي شرّفني بقتلهم، وأرجو من ربّي أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته».[١٧٦]

وفي العصر الإسلامي أيضاً، أخذ الرثاء يتجه اتجاهاً جديداً، إذ أخذ المجاهدون يرثون أشلاءهم المفقودة، كأن يرثي المقاتل يده أوْ رجله، أو إصبعه، أو عينه،... ومن هؤلاء «عبد اللّه بن سَبْرةَ الحرشي» الذي يقول في رثاء يده التي فقدها في سبيل اللّه مجاهداً صابراً:

وَيْلُمِّ[١٧٧] جارٍ غداةَ الجسْرِ فارقني — أعززْ عليّ به إذ بـان فانصدعـا
يمنى يديّ غـدت منـي مفارقـة — لم أستطع يوم خلطاسٍ لها تبعا
وما ضننت عليهـا أن أصاحبهـا — لقـد حرصـت علـى أن نستريح

وفي قصيدة «وصية أب» للشاعر «عبدة بن الطّبيب» نلاحظ بعض الأبيات التي يحاول فيها رثاء نفسه من خلال الوصية التي يقدّمها لأبنائه، فيقول:

ولقد عَلِمْتُ بـأن قصري حُفْـرَةٌ — غـبراءُ يحملنـي إليهـا شَـرْجَعُ
فبكى بنـاتي شجوهنّ وزوجتـي — والأقربون إلـيَّ ثـمّ تصدّعـوا[١٧٩]

وهذا «مالك بن الرّيب» الفارس العربي الذي ضرب في أرجاء الأرض ينشر لواء العدل والحق، وعندما أحسّ بدنّو أجله في بلاد الغربة، تذكّر دياره وأهله، ورثى نفسه، فقال:

صريعٌ علـى أيدي الرجـال بقفـرة — يسومون قبري حيث حُـمّ قضائيا
فيا صاحبَيْ رحْلي دنا الموت فانزلا — برابيـةٍ، إنّـي مقيـمٌ لياليـا
وقوما إذا ما استلّ روحـي، فهيّئا — لـي السّدر والأكفان ثـمّ ابكياليا
يقولون: لا تَبْعُـدْا وهـم يدفنوننـي — وأيـن مكـان البعـد إلاّ مكانيـا؟
وقد كنتُ عطّافاً إذا الخيل أدبـرت — سريعاً إلى الهيجا إلى مَنْ دعانيا[١٨٠]

١٧٦ تاريخ الأدب العربي ـ ص١٩٠ ـ حنا الفاخوري ـ الطبعة التاسعة.
١٧٧ ويلمِّ جارٍ: أصلها ويلٌ لأمّ جارٍ. دعاء يُراد به التعجب والتفجّع. ويقصد بـأم جـار: يده التي قُطعت.
١٧٨ انظر كتاب الأدب والنصوص ص١٦٩ ـ في دولة الإمـارات ـ للصـف الأول الثـانوي ـ لعام ١٩٩٣.
١٧٩ المفضليات للمفضّل الضبي ـ ج١ ـ ص١٤٣ تحقيـق: أحمـد محمـد شـاكر وعبـد السـلام هارون ـ الطبعة السادسة ـ بيروت ـ لبنان.
١٨٠ انظر ص٢٤٨ من كتاب الأدب والنصوص للأول الثانوي في سـورية نقـلاً عـن كتـاب: المنتخب من أدب العرب.

ثمّ نما غصن الرّثاء عن برعمٍ جديدٍ، فأصبح ما يعرف «برثاء الممالك الزائلة»، حيث شاع هذا النّوع من الشّعر في العصر العباسي الثاني، وفي الأندلس بخاصة، لكثرة ما أصاب الدولة من محن وأحداث.

يقولون «ابن عبدون الأندلسيّ» راثياً «بني الأفطس»، في قصيدة، منها هذه الأبيات:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصّور
فلا تغرّنكَ من دنياك نومتها فما صناعة عينيها سوى السّهر[181]

ثمّ أطلّ علينا «أبو العلاء المعرّي» بفلسفته الشعريّة عندما جعل الموت ورثاء الآخرين مدخلاً لرثاء حياة الإنسانية. يقول في قصيدته «رثاء وتأمّلات في الحياة والموت»:

غير مُجْدٍ في ملّتي واعتقادي نوح باكٍ، ولا ترنّم شادِ
وشبيهٌ صوت النّعي إذا قيـ ـس بصوت البشير في كلّ نادِ
أبكت تلكم الحمامة أم غنّت على فرع غصنها الميّاد...؟![182]

وأيّاً كان نوع الرثاء، فإنّ له اتصالاً وثيقاً بمشاعر النفس التي يسببها الفقد، بما يثيره من انفعالات شاحنة للمشاعر، فتبوح بأحلى وأروع قصائد الشعر الخالدة.

وفي ديوان شاعرنا الأنصاريّ قصيدة وحيدة في الرثاء، هي قصيدة «نجم يهوي»، قالها في رثاء أستاذه، ناشر العلم بالمدرسة الشرعيّة بالمدينة المنوّرة، المرحوم النبّيد «أحمد الفيض آبادي»، تغمده الله برحمته.

وتعتبر هذه القصيدة، أطول قصيدة في ديوان الأنصاريّات (٦٦ بيتاً)، وقد جاءت أبياتها كلّها على قافية واحدة، هي القافية (الدالية)، وهذا دليل على تمكّن الأنصاريّ من قوافي الشعر، وقدرته على مجاراته شوطاً طويلاً، كما هو دليلٌ على اضطلاع الأنصاريّ ببيان اللغة العربية ومفرداتها، لأنّ الشعر يحتاج إلى لغة ومفردات وموضوع.

---

١٨١ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص٤٢ ـ طبعة ١٩١٤.

١٨٢ انظر كتاب الأدب والنصوص للثاني الثانوي ص١١٨ بدولة الإمارات منهاج وزارة التربية ١٩٩١.

ومن هذه القصيدة الرثائية، نقتطف الأبيات الآتية:

(١)

الحزن يشمل والتجلّد شارد ... والدمع منهمرٌ من الأطواد
لبس الزمان بفقد (أحمدَ) حُلّةً ... سوداءَ جلّلها بثوب حداد
رزءٌ عميمٌ لا يُقاس بغيره ... موت الزعيم على احتياج بلاد
فلذا جميع الناس في حزنٍ ومن ... فرط الأسى يحيون في أنكاد
عش ما تحبّ كما تحبّ محاذراً ... فالموت للأحياء بالمرصاد

(٢)

ذي الدار دار الحزن فهي بغيضةٌ ... فُطرت على التفريق والإبعاد
حصّادة لبني الورى بمناجلٍ ... طُبعت لحصدهم أغذّ حصاد

(٣)

لله قومٌ عالجوا إصلاحها ... وتقلّدوا بمصابح الإرشاد
تخذوا الحياة سفينة عبروا بها ... لُجَج الفناء إلى أجلّ مِعاد
وبنوا بها دور النهوض بهمّةٍ ... وثّابةٍ لِبَنيهمُ الأمجادِ
فأولئك الأبرار حقّاً إنّهم ... في جنّة المأوى بيوم تناد

(٤)

الأرض واجفة تموج دجنّة ... بأفول شمس الفضل والإسعاد
والعلم في قلَقٍ يهزّ نياطه ... إذْ غاب بدر العلم عن ذا النّادي

(٥)

ما كان رزؤك رزء شخصٍ واحدٍ ... لكنّه رزء على الأحشاد

(٦)

إنّي خبرتك في مواطن جمّةٍ ... فخَبرْتُ رمز الخير والإنجاد

(٧)

أنشأتَ «مدرسة العلوم» وَشُدْتَها ... بسياسة الشّهم الحكيم الحادي
ورفعتها كالبرج في أُفق السّما ... لتكون في الدّنيا منار رشاد

يـا والـد الفقـراء والأيتـام في ... بلـدٍ بـه الفقـراء في تعـداد (٨)
مَـنْ لليتيـم وللفقـير وللـذي ... يبغـيْ العلـوم مُكَبـلاً بكسـاد؟

غشّـاك ربّـي رحـمة فوّاحـةً ... مـا صيغ شِعْرٌ من شعور فؤاد[١٨٣] (٩)

ومن خلال استقراء القصيدة كاملة، حاولنا الإحاطة بأفكارها العامة الآتية:

١ ـ اشتراك الزمان مع البشر في حالة الحزن على الفقيد الذي كان وَقْعُ صوته بالغاً في النفوس (الأبيات من ١ـ٤).

٢ ـ ترصُّد الموت والدار الدنيا لحركة الأحياء من أجل حصادهم وفنائهم (الأبيات من ٥ـ١٠).

٣ ـ إنّ الرجال التُّقاة الصالحين يتزوّدون من الحياة الدنيا بزادٍ يوصلهم إلى الحياة الآخرة، وهؤلاء لهم الفوز العظيم (الأبيات من ١١ـ١٧).

٤ ـ الأرض والعلم والقلوب في حالة اضطراب وهلع شديدين لما أصابها بعد هذا الفقد العظيم الذي كان شعباً في رجل (الأبيات من ١٨ـ٢١).

٥ ـ جنازة الفقيد تشييعٌ للقلوب التي أحبته وللطبيعة التي أسَرَها بإشراقته (الأبيات من ٢٢ـ٢٣).

٦ ـ تحديد زمان ومكان دفن الفقيد (الأبيات من ٢٤ـ٢٦).

٧ ـ الحديث عن مناقب الفقيد الحميدة، مثل (الخير والنجدة والكرم ومقاومة الفساد والحرص على الإصلاح ، والطهارة، وسداد الرأي،...) (الأبيات من ٢٧ـ٣٤).

٨ ـ حرص الفقيد على تأسيس مدرسة العلوم، وجعلها منارة من منارات العلم والهداية، وتضحيته بكل ما يملك ويستطيع (مال، وقت، نفس...) من أجل هذا الصّرح الشامخ، لا يصدّه عن ذلك ما يعترض مسيرته من متاعب ومصاعب... (الأبيات من ٣٥ـ٥٠).

---

١٨٣ ديوان الأنصاريّات ص٦٧ـ٧٤.

٩ ـ الفقيد الراحل كان والداً يأخذ بأيدي الفقراء والأيتام إلى موارد العلم والمعرفة (الأبيات من ٥٢ـ٥٥).

١٠ ـ ما تركه الفقيد من مجد عظيم ببنائه لمدرسة العلوم التي ستظلّ منارة ترفد الأجيال بنور طالعها وجناها (الأبيات من ٥٦ـ٦٣).

١١ ـ الدعاء للفقيد بالرحمة وبمنازل الفردوس التي أعدّها اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ للصالحين من عباده (الأبيات من ٦٤ـ٦٦).

لقد جاءت قصيدة الشاعر مشتملة على مجمل معاني الرثاء التي يمكن أنْ تُقال في رثاء فقيد. ولا أحد يزعم أبداً، أن معاني الرثاء وقصائده ليست متشابهة مع بعضها إلى حدٍّ كبير. والسّبب في ذلك أنّ المشاعر الإنسانية في مثل هذه الحالات متشابهة إلى حدٍّ كبير، لأنّه لا بدّ من أن نذكر الفقيد وحياته بأجمل التعابير والصور التي تعبّر عن فداحة الأمر، وجلل المصاب، وأنه كان يتمتّع بكل ما هو محمودٌ وطيّب.

لكن القدرة الشعرية على صياغة القصيدة، وتفريغ شحنات العاطفة في مفاصلها، هو الذي يجعلك تتمثّل الموقف، لتشعر ـ فعلاً ـ أنك في موقف رثاء، فيحملك الشاعر على شحن عاطفتك، للمشاركة في الأحداث.

ولقد أشار الدكتور «عبد اللّه أحمد باقازي»، إلى براعة الاستهلال في قصيدة الأنصاريّ الرثائية، فقال:

«... هذا الأستهلال الرثائي البارع، يذكّرنا باستهلالات رثائيّة رائعة في الشعر العربي، أبرزها استهلال الشاعر العباسي «أبي تمّام» في رثاء «محمد بن حميد الطوسي» حيث قال:

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر — فليس لِعَيْنٍ لم يفضْ ماؤها عُذْرُ
توفّيت الآمال بعد (محمّدٍ) — وأصبح في شغل عن السَّفر السفر[184]

كما أنّ القصيدة أيضاً، تعيد إلى أذهاننا قصيدة «أبي العلاء المعرّي» «رثاء وتأملات في الحياة». وسبق أن ذكرنا بعض أبياتها.

١٨٤ عبد القدوس الأنصاريّ شاعراً ـ د. عبد اللّه أحمد باقازي ص١٧.

كما أشار الدكتور «باقازي» أيضاً، أن قول الأنصاريّ:

ما كان رزؤك رزء شخص واحدٍ لكنّه رزءٌ على الأحشاد[١٨٥]

.... هذا البيت بتميّزه وتفرّده، وأخذه طابع «المثل الشارد أو السائر» يذكّرنا ببيت الشاعر: «عبدة بن الطبيب» في رثاء قيس بن عاصم المَنْقري التّميمي:

فلم يك قيس هلكه هلك واحدٍ ولكنّه بنيان قومٍ تهدّما

وقد وصف «أبو عمرو بن العلاء» بيت «عبدة بن الطبيب» السابق بقوله: «هذا البيت أرثى بيت قيل، وقال ابن الأعرابي: هو قائم بنفسه ماله نظيرٌ في الجاهلية ولا الإسلام.».[١٨٦]

ويتابع الدكتور «باقازي» قائلاً:

«... وإذا كانت القصيدة الرثائية قد مضت في تعداد مناقب الفقيد، ومديحه من خلال ذلك، فإنّ ذلك يُعدّ من صميم القصيدة الرثائية، لأن المديح والرّثاء، «وجهان لعملة واحدة»، والعلاقة بين المديح والرّثاء معروفة، إذ إنّ الرثاء ما هو إلاّ مديح «الميت»، يشير «ابن رشيق» إلى طبيعة العلاقة بين المديح والرّثاء، فيقول: «وليس بين الرثاء والمديح فرق، إلاّ أنه يخلط بالرثاء شيء يدلّ على أن المقصود به ميت، مثل «كان» أو: عدمنا به كيت وكيت»، وما يشكل هذا ليعلم أنه ميت»... وقد حقّق شاعرنا الأنصاريّ هذه العلاقة عندما مضت قصيدته في السّيد «أحمد الفيض آبادي»، تمزج الرثاء بالمديح في معالجة شعرية جيدة...».[١٨٧]

وشخصيّة الأنصاريّ في رثائيته واضحة في مواطن كثيرة، منها حسن استخدام اللغة، واطلاعه على التراث العربي، والقدرة على مجاراة الوزن الشعري، والنَّفَس الشّعري والقافية، وصياغة التعابير المؤثّرة والمناسبة للحدث.

---

١٨٥ ديوان الأنصاريّات ص٦٩.

١٨٦ عبد القدوس الأنصاريّ شاعراً ـ د. عبد الله أحمد باقازي ص١٩.

١٨٧ المرجع السابق ص٢٠.

كما تبدو قدرة الشاعر، عندما رسم صوراً فنيّة جديدة للرّثاء، منها قوله:

ذي الدار دار الحزن فهي بغيضةٌ — فُطِرَتْ على التفريق والإبعاد
حصّادة لبني الورى بمناجلٍ — طُبِعَتْ لحصلهم أغذّ حصاد[188]

وقوله:

والعِلْمُ في قَلَقٍ يهزّ نياطه — إذْ غاب بدر العلم عن ذا النّادي[189]

وقوله:

حملوا أبرَّ، وإنّما حملوه في الأ — حناء، لا في شاخص الأعواد.[190]

وحرصه على تحديد زمان ومكان الدفن، كقوله:

حتى أتوا جدثاً لقد حفروه في — شغف القلوب حواضراً، وبوادي
وهناك (ليلاً) أو دعوه بروضةٍ — محفوفةٍ بأرائك العُبّاد
وسط «البقيع» وبين آل (محمد) — أجداده الأعلين في الأجداد[191]

كما أحسن حسن الختام في القصيدة، يبدو واضحاً في قول الشاعر:

غشّاك ربّي رحمةً فوّاحة — ما صيغ شعرٌ من شعور فؤاد[192]

٦ـ شعر الغزل:

تطالعنا في ديوان الأنصاريّات قصيدة يتيمة في مثل هذا النوع من الشعر، هي قصيدة «عشق الجمادات».[193]

---

١٨٨ ديوان الأنصاريّات ص٦٨.

١٨٩ ديوان الأنصاريّات ص٦٩.

١٩٠ ديوان الأنصاريّات ص٦٩.

١٩١ ديوان الأنصاريّات ص٧٠.

١٩٢ ديوان الأنصاريّات ص٧٤.

وعنوان القصيدة ذاته، بل ما جاء في أبياتها، يجعلنا نتريّث في الحكم على ما أراده الأنصاريّ في قصيدته التي بلغ عدد أبياتها «خمسة وثلاثين» بيتاً. واستقراء النص يجعلنا نقف أمام أمرين اثنين في مضمونه العام الذي جاء ضمن مفهوم واحد من الحب.

فقد رأيت أنّ الأبيات الستة الأولى، تتحدّث عن مفهوم الشاعر للحبّ، فهو يعكس إلينا صورة مشرقة، يستعيدها من صور الحبّ العذري النّقي الطاهر، الذي تهذّب بفضل الإسلام، فبرأ النفوس من كل إثم. هذه النفوس التي عصمتها بداوتها وأخلاقها وتديّنها بالإسلام الحنيف من الانغماس بما تدفع إليه الغرائز والحضارة المترفة، بل اصطلت بنار الحبّ العفيف الذي يرمض النّفس، ويجهد القلب، حتى ليصبح داءً لا يُستطاع البرءُ منه.

ويحرص الشاعر على رسم صورة الفتى المحبّ، وما يجب أن يمتاز به الفتى من الأخلاق الحميدة التي تعكس حبّه بصورة أخلاقيّة، كأن يكون طاهراً في حبّه، ويكتفي من حبيبه الذي امتلك قلبه بالمحاورة والنظر، وأن يوقف حياته وعمره ونفسه من أجل محبة هذا الحبيب، ولا يسلاه أبداً، أينما حلّ أو ارتحل، حتى ليصبح عبداً أسيراً يصطلي بنار هواه.

يقول الأنصاريّ:

كلّ جسمٍ مهما تعفّف يوماً — وارِدٌ (منهل الهوى العذب وردا
والفتى الطاهر النزيه نزيهٌ — في هواه مهما تفاقم وجدا
يكتفي بالمحاورات والنظر العا — لي إلى مَنْ هواه بالجسم شدّا
ويرى نفسه العزيزة وقفاً — خالداً للحبيب أنّى تبدّى
ويسوم الوصال في كلّ هذا — كلّ حين أنّى جفاه وصدّا
هكذا العشق يجعل العبد حرّاً — هكذا العشق يجعل الحرّ عبدا[194]

والأمثلة في مثل هذا الجانب كثيرة في الشعر العذري، يقول جميل بثينة:

---

١٩٣ ديوان الأنصاريّات ص٨٣.

١٩٤ ديوان الأنصاريّات ص٨٣.

لا والـذي تسـجد الجبـاه لـه / مـا لـي بمـا دون ثوبهـا خـبر
ولا بفيهـا ولا هَمَمْـتُ بـه / مـا كـان إلا الحديث والنظر[١٩٥]

وقول جميل أيضاً:

وإنـي لأرضـى مـن بثينـة بـالذي / لو ابصره الواشي لقـرّت بـلا بلـه
بـلا وبـأن لا أسـتطيع وبـالمنى / وبـالأمل المرجـوّ قـد خـاب آملـه
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي / أواخـره لا نلتقـي وأوائلـه[١٩٦]

والأمر الآخر الجديد الملفت للنظر في قصيدة «الأنصاريّ»، هو أنه جعل الجمادات على علاقة عشق حميمة شبيهة بحبّ الشعراء العذريين، بل إن ما عكسه الشاعر على غيره هو من هوى النفس التي جاءت بذلك.

لقد التقت الأرض والقمر في علاقة حبّ، هكذا رأى الشاعر، بل هكذا تمثّل له الأمر. فالقمر بلغ مرحلة الشباب، وتدفق ماء الحسن في وجهه، وأصبح لهيب الحبّ يعصف بين جوانحه، فراح يرسل خيوطه الذهبية إلى وجه الأرض، ليبعث فيها الرفق. وجعل حياته وقفاً على حبّها، لا يزيغ نظره عنها أبداً. وبعد أن تمكّن هذا الحبّ في قلبه، ولم يتمكّن من الوصول إليها، أصبح هائماً على وجهه، يعيش على أمل اللقاء، أو يموت كمداً وألماً بسبب فراقها. يقول الأنصاريّ:

(قَمَرٌ) في السماء شبّ وشبّ الـ / حُسْـنُ في وجهـه فـأصبح فـردا
عشق (الأرض) في شبابٍ وولّـى / شـطرها وجهـه المنـير المفـدّى
ثـمّ لّمـا طغـى عليـه هواهـا / خطـب الوصـلَ بالجمـال فَـرُدّا
فغـدا حائمـاً عليهـا دوامـاً / يطلـب الوصـل في الطـلاب ألـدّا
يا تـرى هـل ينـال كـلٌّ مُنـاهُ؟ / أمْ تـراه بصـارم الصّـدّ يـردى؟
هكـذا العشـق يجعـل العبـد حُـرّاً / هكذا العشق يجعل الحرّ عبـدا[١٩٧]

---

١٩٥ شرح ديوان جميل ص٥٤ ـ المكتبة الثقافية بيروت.

١٩٦ انظر الأبيات في الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني الجزء الثامن ـ ص١٠٥ ـ طبعة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

١٩٧ ديوان الأنصاريّات ص٨٤.

والنّسيم العليل رسول العشق بين الحبيبن، وهو الذي يُحَمِّلُهُ كُلُّ واحدٍ منهما هواجس نفسه، ومشاعر قلبه، فيعيد لكل واحدٍ منهما الأمل بوصال الآخر، وحفاظه على الودّ الأبدي.

ومما يزيد جمالية النص، حرص الشاعر على أن يقيم بين الحبيبين حواراً حميماً، يبثّ من خلاله الحبيب /القمر/ لواعج نفسه وحبّه لمن أوقف حياته من أجل حبّها الذي هو مجده العظيم الذي يصبو إليه، للوصول إلى جنّته النّضرة التي تميد بقدّها أمامه، فيُفتَنُ بسواحر حسنها.

ويحرص الحبيب /القمر/ على أن يوصي حبيبته /الأرض/ بالحفاظ على حُبّه، والحذر من عيون الرقباء والوشاة الذين يترصّدون حياة العُشّاق، فينغصون عليهم مسرّاتهم. يقول الأنصاريّ:

أيها الكوكب الذي أنا عبدٌ	*لمحيّاه جاعلاً ذاك مجدا*
أنت يا جنتي النضيرة ميسي	*إنني خاضعٌ لحسنك عمدا*

وتبوح الحبيبة /الأرض/ بمكنونات حُبِّها، حبّها الذي يفوق كُلّ حب، ولكنّها تكتمه في نفسها وذاتها، ولا تبوح بكل ما تحسّ به من أشواق، حفاظاً على ديمومة الحبّ، ولأنّ من طبع الحبيبات الهدوء والأناة، وليس من طبع الحبيبة أن تحدّث الحبيب بكل ما يعتمل في صدرها من مشاعر وأحاسيس، ربّما لأن الحياء يمنعها من ذلك، أو لأنّه يجب عليها أن تكون أكثر هدوءاً في مواقف العشق أمام حبيبها.

كما توصيه بالتحايل على الآخرين، والتظاهر بالصّد والبعد، على ألاّ يحرمها من وصاله الذهبي الذي يرسله إليها بين حين وآخر.

بل إنّ قربها منه يعني الكارثة الحقيقية، والانقلاب في الحياة إلى ثورة عارمة، وهي لا تريد أن تتحوّل الأمور إلى مثل هذه الحال.

يقول الأنصاريّ على لسان الحبيبة /الأرض/:

١٩٨ ديوان الأنصاريّات ص٨٥.

وأجابته بـالدموع ولكـن | أردفتها في الحـال قـولاً أسـدّا:
إنّ عشقي مضاعفٌ فوق ما تحسبه | العشق غير أنّي أهـدا
إنّ هـذه الأكـوان تحسـد طبعـاً | مـن تـراه بحـبّ بعـضٍ تـردّى
فـاتّئد في الغـرام واصـبر مليّـاً | لا تكن في الهوى جزوعـاً فتردى
وانتـحِ البعـد عـن فضـائي حينـاً | واقترب بالشّـعاع كـي أستمدّا
إنّ قربـاً منـيّ يشـير انقلابـاً | لسْتُ أسطيعُ ما يُثير فَبُعْدَا[199]

إذاً: الشاعر يكشف عن مكنونات النفس، ومضاعفات الحبّ، وتربُّص الواشين بالمحبّين، وتبدو الحبيبة أكثر تعقُّلاً وحرصاً على حبيبها، فتوصيه الحذر والحرص والصّبر على حُبّها وبعدها، لأن التّسرّع قد يقوده إلى الهلاك.

كما تبدو الحبيبة أكثر فهماً لعواقب الأمور، فَقُرْبُ الحبيب منها قد يقود إلى مشكلات كثيرة، وقد يقلب الأمور رأساً على عقب، حتى لتبدو وكأنّها ثورة في المجتمع على هذا الحبّ الذي ظهرت ملامحه وإشعاعاته. والحبيبة بهذا، توضّح موقف المجتمع المحافظ من المحبّين، وهي قضية عانى منها الشعراء العذريون، وذكروها في أشعارهم، عندما تحوّل المجتمع إلى أداة لوأد الحبّ الذي ولد في قلوبهم.

وتعلّل الحبيبة /الأرض/ الأسباب التي تجعلها توصي حبيبها /القمر/ بالتظاهر بالبعد والصّدّ. وأنّ هذا الأمر الذي قد يُحزن حبيبها، هو من باب الحفاظ عليه، وإنها حريصةٌ على حُبّه، ولن يتسرّب إلى قلبها أيّ معنى من معاني الخداع والخيانة والنّفاق. فهي حريصة على كُتمان أمر الحب بحرص شديد لئلاّ يتسرّب، فيفتضح. وإذا كان لحبيبها رأي آخر، فإنها تستمع إليه:

بيد أنـي خوفـاً عليك مـن الـوا | شين أبديْتُ مـا تخيّلـت صـدّا
وإذا كُنْـتَ لـم تثـقْ بـاعتذاري | (والهوى فاتنٌ) فرأيك أجدى[200]

---

١٩٩ ديوان الأنصاريّات ص٨٥.

٢٠٠ ديوان الأنصاريّات ص٨٦.

وظلّ الحبيب يحيا على أمل الأماني الموعـودة المنتظـرة، لأن قـدر اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ جعله بعيداً كل هذا البعد عن حبيبته، فما عليه سوى الصّبر الذي هو سبيله إلى الوصال، فإن الهجر مهما تطاول فلا بُدَّ أن ينتهي:

أيها العاشـق الـذي قـد رمـاه   قـدر اللّـه بالبعـاد فـأودى
كُـنْ صبوراً فـإنّ للوصـول يومـاً   سوف يأتي: وإنّ للهجر حدّا[201]

وبعد: لقد تمكّن الشاعر من إجراء حـوار شـعري بـين عاشـقين مـن الجمـادات، حمّلهما كلّ ما يمكن أن يتحمّله الإنسان من أحاسيس وعواطف ومشـاعر ومكنونـات. وهذه القضية ملفتة للنظر فعلاً: فلقد قال الشاعر على لسان الحبيبين /القمر والأرض/ ما يريد أن يقوله هو، أو ما يحسّ به بداخله.

فالعلاقة القائمة بين /القمر والأرض/ تعبّر عن تجربة حبّ مأخوذة مـن حيـاة مجتمع ليس بعيداً عن المجتمع الذي يعيش فيه الشاعر، والتجربة الذاتية متكررة في مثل هذه البيئـة. ومفهوم الحبّ مفهوم محافظٌ، يدعو إلى التعفّف بـالحب، وتهذيـب الأخـلاق. وكـل ذلـك رحيقٌ من جنى النفس الشاعرية التي ترسم ظلال قصص الحبّ كما يجب أن تكون.

ولقد تمكّن الشاعر ببراعة فائقة إجراء الحوار بين الجمادات، وجعلها تحـسّ بكـل ما تحسّ به النفس البشرية الكريمة، بل لقد رفـع مـن درجتهـا عندمـا جعلهـا تتعفّـف في حبّها، وتتحمّل مسؤولياتها بتعقّل.

واستطاع الشاعر أن يكشف عن مكنونات الأنثى، التي قد تكون أكثر حبّاً ممـن تحبّ، ولكنّها تتظاهر بالهدوء والاتزان، ولا تتسرّع وتُلقي بنفسها بين أيدي مَنْ تحـبّ، بل تمتلك أعصابها ومشاعرها بشكل يحافظ على كرامتها وهيبتها.

إذاً: غزل الأنصاريّ من نوع آخر، إنه يعيـد إلى ذاكرتنـا صـورة الحـب العـذري بصورته الإنسانية النبيلة، وكان أكثر براعةً وفنّاً عندما جعل قصة هذا الحبّ على لسـان الجمادات التي حمّلها أحاسيسه ومشاعره، وجعلها تنطق بلسان حاله.

---

٢٠١ ديوان الأنصاريّات ص٨٦ـ٨٧.

وصورٌ مثل هذا النوع من الشعر، صورٌ نادرةٌ في الشعر العربي.

وقد ترك الشاعر قافيته (الدالية) ممتدة بالألف المطلقة ليحمّلها آهات الحب وأنفاسه، لتكون أكثر امتداداً واتّساعاً لحرقته وبوحه.

٧- شعر الفكاهة والظّرف:

يبدو هذا الجانب في ديوان «الأنصاريّات» من خلال قصيدتين اثنتين هما: «الجندوليّة الجديدة»[٢٠٢] و«ليلتان في عمّان»[٢٠٣].

وهذا الجانب يعبّر عن خفّة روح الشاعر، ووجود فُسْحَةٍ من الدعابة والمرح في نفسه وقلبه.

في «الجندولية الجديدة» يذكر الشاعر مناسبة هذه القصيدة في مقدمتها النثرية، فيقول: «في يوم جميل من أيام الربيع يصادف يوم عيد الأضحى، خرج الشاعر مع نَفَرٍ من أصدقائه إلى ضاحيةٍ من ضواحي «مكّة»، للتمتّع بمناظرها البهيجة، وللقيلولة هناك، فداهتمهم أسرابٌ هائلة من الذّباب، لازمتهم سحابة النهار، وقد كدّرت صفوهم، وأفسدت عليهم نزهتهم، فجاءت هذه «الجندوليّة» نتاج ذلك...»[٢٠٤].

يقول الشاعر في قصيدته:

أين مِ «الإفليت»[٢٠٥] هاتيك المحالي — *يا قذى الأعين يا كرب الخيال*
أين مِ «الهلهد» مسنون النّصال — *أين من منقاره هذي المحالي*
موكب الذّبّان في (عيد السّخال)[٢٠٦] — *وسراياه إلى مغنى الجمال*

٢٠٢ ديوان الأنصاريّات ص٩٥.

٢٠٣ ديوان الأنصاريّات ص٩٩.

٢٠٤ ديوان الأنصاريّات ص٩٥.

٢٠٥ الإفليت: سائل كيميائي تُباد به الحشرات. [انظر الأنصاريّات ص٩٥-٩٦].

٢٠٦ عيد السخال: الأضاحي. [انظر الأنصاريّات ص٩٦].

بـات في ليلتـه ينـدب هجـره
خاوي البطـن وقـد أفـرغ صبره
كلّما هبّت مـن الـوادي سُحَيْرَه
نَسْمَةٌ، هـبّ وقـد أشـحذ شَفْرَه

أين مِ (الإفليـت) هـاتيك المحـالي موكب الذّبّان في عيد (السّخال)[٢٠٧]

وتبدو الطرافة الشاعريّة في اهتمام الأنصاريّ بمثل هذه الموضوعات، وفي حرصه الدقيق على وصف حالة الموصوف الذي قَدَّمَ في مثل هذه المناسبة، يجرّ سراياه إلى مغاني البهجة والجمال، بعد أن بات يندب حظّه العاثر، عندما هجم اللّيل وأبعده، عمّا أَلِفَهُ من منظر، وعمّا حقّقه من طعام، فها هو الآن يستعدّ ويشحذ همّته وملاقطه الحادّة لينقضّ على طعامه بعد أن فرغ صبره، ونَفَدَ ما بجَوْفِه.

ثم يصف الشاعر عناد الذّبان، فما أن يقوم الشاعر وصحبه بطرد أسرابه لفترة قصيرة حتى يعود بحشوده من حديد، وكأنه في حالة تَحَدٍّ حقيقيّةٍ:

إنْ طردنا سربه الهابط فترة
ضاعف الذّبّان في التحشيد أمره[٢٠٨]

إن وصف الشاعر للذّبان بالعناد، وصفٌ حقيقيٌّ، فلقد كان الرومان قديماً، يقدمون إلى جنودهم أوسمةً تقديريّةً، رسمت عليها صورة ذبابة، كتعبير عن صمودهم وموقفهم الدفاعي المستميت وثباتهم في ساحات القتال.

ويذكر الدكتور «عبد الله باقازي» أن نموذج «القصيدة الجندوليّة» التي أخذت وضعاً هزليّاً فكاهيّاً، عارض فيها شاعرنا الأنصاريّ الشاعر العربي الحديث «علي محمود طه» في قصيدته «الجندول». والمعارضة تعني: «أن يقول شاعر متأخّر عن شاعر متقدّم في الزمان قصيدة مشابهة لقصيدته في الغرض والموضوع مع الالتزام بالوزن والقافية وحركة حرف الروي».

---

٢٠٧ يوان الأنصاريّات ص٩٥-٩٦.

٢٠٨ ديوان الأنصاريّات ص٩٧.

... ونلاحظ أن معارضة شاعرنا الأنصاريّ ـ أو تأثّره ـ بعلي محمود طه ـ لم تكن في «الغرض أو الموضوع»، فغرض ـ علي محمود طه ـ في قصيدته «الجندول» كان غزليّاً صرفاً، لكنّ شاعرنا الأنصاريّ كان هزليّاً فكاهيّاً طريفاً محضاً، غير أن التباين في الغرض الفنّي والشعري لم يُلْغِ المعارضة، فهي ما تزال قائمة.

يذكر الدكتور «محمد محمود قاسم نوفل» شيئاً حول هذا الموضوع، فيقول: «وقد يكون في الموضوع اختلاف وانحراف يسير أو كثير بين القصيدتين مع اختلاف في الغرض ـ أيضاً ـ وهذا من المعارضات كذلك، ولكنّها معارضةٌ ناقصةٌ، وموضوع النقص قد يكون من اختلاف الغرض أو اختلاف حركة الروي».

ويتابع الدكتور «باقازي» قائلاً: وسواءٌ أكانت معارضة شاعزنا الأنصاريّ ـ من خلال هذا المنظور ناقصة أو تامّةً فهي في نهاية الأمر تعكس ـ تأثّره بقصيدة «الجندول» «لعلي محمود طه»، وإن كان توظيف الأنصاريّ للغرض الشعري والفنّي مختلفاً تماماً عن غرض «علي محمود طه». لكن شاعرنا ـ الأنصاريّ ـ التزم بالنهج الفنّي والشّكلي والموسيقي للجندول التزاماً تاماً.

ومطلع قصيدة الجندول لعلي محمود طه:

أين من عينيّ هاتيك المجالي   *يا عروس البحر يا حُلم الخيال*

وقد سارت قصيدة شاعرنا الأنصاريّ على نَسَقِ قصيدة «الجندول»، مع اختلاف الغرض والمضمون الشّعري، الذي كان في «الجندول»، غزليّاً ووصفياً، وفي قصيدة الأنصاريّ «الجندولية الجديدة» هزليّاً طريفاً يقطر ظرفاً وملاحة».[٢٠٩]

ونحن بدورنا، نؤكّد أن اختلاف القصيدتين في المضمون لا يُلغي المعارضة، فلا بدّ للشاعر من أن ينهل من التراث، وليس لزاماً عليه أن يعيد صورته السابقة بشكلها ولونها وملامحها العامة والخاصّة، بل يجب أن يظهر لنا قدرته على تجديد الصورة ورسمها بإطار جديد يستمدّه الشاعر من الموضوعات التي تكون أو تقع في دائرة اهتمامه وظروف حياته.

---

٢٠٩ عبد القدوس الأنصاريّ شاعراً. د. عبد الله باقازي ص٦٥-٦٦.

وفي القصيدة الثانية «ليلتان في عمّان»، حيث الليلة الأولى «في فندق بالاس»، وهي كما يسمّيها الشاعر: «ليلة ليلاء». ومن هذه الصفة تبرز شدّة المعاناة التي نتبصّرها في قصيدة الشاعر التي قصّ علينا فيها، قصة هذه الليلة الليلاء الطويلة الشديدة، يقول الأنصاريّ:

فندقٌ قد نزلْتُ فيه أصيلاً   بعد سَيْر قضيته مُلتاحا
ونشدنا به ارتياحاً ونوماً   هادئاً نجتوي به الأتراحا
وصفوه لنا وقالوا: «عليٌّ»   فقصدناه مفعمين انشراحا
فلقينا به العناء وسهداً   وبعوضاً وضجّةً وَنُباحا
كُلّ بابٍ يصيح إن فتحوه   وإذا أغلقوه أنَّ وصاحا [٢١٠]

إذاً: نزول الشاعر في الفندق كان مساءً، بعد رحلة طويلة شاقّة، وكان أمله أن يصيب في هذا الفندق الراحة والهدوء والسكينة، فهو من الفنادق التي وصفوها بحُسْنِ المنزل والمقام، فكان الأمل كبيراً بأخذ قسطٍ كبيرٍ من الراحة، وخلع عباءة التّعب والمعاناة، وقد خابت آمال الشاعر عندما وجد عناءه يتواصل بعناء جديد يتمثّل في القلق والضجّة والبعوض ونباح الكلاب، وصوت الأبواب المخلّعة التي تُخرج أصواتاً مزعجةً كلّما اقترب منها مَنْ يُغْلقها أو يفتحها. ثم يستمرّ الشاعر في وصف صنابير الماء المُرْسلة بدون توقف. وكذلك يصف «البُسُطَ» التي فُرشت في أرض الفندق، وقد اعتراها البلى، فأصبحت رثّةً خَلِقَةً، فظهر من تحتها البلاط بهيئته. ويحرص الشاعر على تحديد الزمن الذي أمضاه في الفندق، فيقول:

قد سمعنا فيه الأذانَ عشاءً   وسمعناه بالمكان صباحا [٢١١]

وإضافةً إلى ذلك كلّه، فإنّ روّاد الفندق، من طبعهم الضجيج والفوضى والإزعاج، فكأنّهم قد اعتادوا على هذا الأمر، وارتادوا هذا الفندق لأنهم يلتمسون فيه مثل هذه الأشياء. يقول الأنصاريّ:

---

٢١٠ ديوان الأنصاريّات ص٩٩.

٢١١ ديوان الأنصاريّات ص١٠٠.

دأبُ نزّالــه «الكــرام» ضجيــجٌ وعجيــجٌ قــد أشبعوه صياحــا
مــا لمسنا فيــه ارتياحــاً مســاءً وصباحاً لم نَلْـقَ فيه ارتياحـا[٢١٢]

ويحرص الشاعر على ألاّ يتّهم روّاد الفندق بشخصيتهم أو أخلاقهـم، فهـم كمـا يصفهم، كرامٌ طيبون، وهذا يذكّرني بقول «عنترة العبسي» ـ وإن كان هناك اختـلاف في المضمون:

وشككت بـالرُّمح الأصــمّ ثيابــه ليس «الكريم» على القنا بمحرّم[٢١٣]

ثم يغادر الشاعر هذا الفندق، ليقضي ليلته الثانية الباسمة في «فنـدق فيلادلفيـا»، ينسى فيها ما أصابه من التعب والمعاناة والقلق في ليلته السابقة، فيقول:

ونزلت من بعد «بالاس» ـ «فيلا دلفيـا» الفنـدق الرفيـع الشّـان
قــد نعمنــا فيــه بنــومٍ لذيــذٍ واطرحنـا أعباء مــا قــد نُعـاني
وطعمنــا فيــه غــذاءً شــهيّاً في أوان تزهـــو بكـــلّ أوان
لـم يرعنـا فيه بعوضٌ ولا ضـجّـةٌ ولا ضجّةٌ من «الجنّان»!![٢١٤]

ويحرص الشاعر بعد ذلك على وصف هيئة الفندق من الغرف والديكور والسّرر والأضواء الكهربائية الرتيبة والخزن المنظمـة بمـا يحتاجه المقيـم مـن ثيـاب، والأبـواب لا تُخرج أصواتاً وصياحاً أثناء فتحها وإغلاقهـا، كمـا يصـف المرايا والكراسي والمصعد والبُسُط والهاتف والمسبح، وبهذا أمضى ليلته من المساء وحتى الصباح، ثم سافر برّاً من «عمّان». ويقول في ذلك:

قـد مكثنـا فيــه مســاءً وصبحــاً وارتحلنا بـالبرّ مـن «عمّـان»[٢١٥]

---

٢١٢ ديوان الأنصاريّات ص١٠٠.

٢١٣ شرح القصائد العشر للتبريزي ص٢٣٩ ـ ضبط وتصحيح عبد السلام الحوفي ـ طبعة ثانية ١٩٨٧ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢١٤ ديوان الأنصاريّات ص١٠١.
ـ الجنّان: هم أولئك الأطفال الصغار بالغرفة المحاورة. [انظر الأنصاريّات ص١٠١].

٢١٥ ديوان الأنصاريّات ص١٠٢.

ومن خلال هذه القصيدة نلمس روح الأنصاريّ التي اعتاد عليها في أسلوبه التأليفي في التاريخ والآثار، فهو حريصٌ على ذِكْرِ كل ما يتعلّق بحالة الإقامة، ويفصّل لنا دقائقها بالتفصيل، وهذا من باب الأمانة العلمية.

وقد بدت روح الأنصاريّ الظريفة في القصيدة بصورة جليّة، عندما حرص على الوصف الدقيق الذي يُدْخل المتعة والدعابة في النّفوس، ولا سيّما في قوله:

كـلّ بـابٍ يصيـح إنْ فتحـوه ... وإذا أغلقـوه أنّ وصاحـا[٢١٦]

وقوله:

بُسِّـطَ فيـه، أكـل الدهـر ... عليهـا وَجَبَّهـا واسـتباحا
قـد أصيبـت أطرافهـا بـاهتراء ... وعراهـا البلـى الملـحّ صُراحـا
وأصيبـت أحشـاؤهنّ بفتـق ... مُزْمِنٍ فازدهى «البـلاط» ولاحـا
دأبُ نزّالـه «الكـرام» ضجيـجٌ ... وعجيـجٌ قـد أشـبعوه صياحـا
مـا لمسـنا فيـه ارتياحـاً مسـاءً ... وصباحاً لم نَلْـقَ فيه ارتياحـا[٢١٧]

وإنّ حالة «الجناس» الظريفة في: «ضجيج»، «عجيج»، إضافة لما تولّده لفظتا «ضجيج» و«عجيج» من مناخٍ دالٍ على «الإزعاج» تأتي حالة «الجناس» بين اللفظتين لتعمّق من الإيقاع الحسّي لهما في الدلالة على الإزعاج والضوضاء.[٢١٨]

وإن صورة الطباق في البيت الأخير بين «مساءً» و«صباحاً» تزيد من جمالية المعنى، وتبرزه بصورة لا تكلّف فيها. أمّا قافية الأبيات (الحائيّة) فقد عبّرت عن معاناة الشاعر في ليلته الأولى، بينما عبّرت قافيته (اليائية) عمّا التمسه من غبطة وراحة وهدوء مسترسل في ليلته الثانية.

٨ ـ الشعر الإسلاميّ:

يعبق شذا النّفحات الإسلاميّة في ديوان «الأنصاريّات» ــ لعبد القدوس الأنصاريّ ـ في معظم قصائد الديوان، سواءٌ أكان ذلك بصورةٍ مباشرة أم كان بصورة

٢١٦ ديوان الأنصاريّات ص٩٩.

٢١٧ ديوان الأنصاريّات ص١٠٠.

٢١٨ **عبد القدوس الأنصاريّ شاعراً. د. عبد الله أحمد باقازي ص٤٦.**

غير مباشرة.ففي الديوان تطالعنا قصيدة كاملة من هذه النّفحات، هي قصيدة «تحيّة شهر الصّيام»[٢١٩]، يتحدّث فيها الشاعر عن شهر الصيام، شهر رمضان المبارك، وماله من مزايا طيبة في حياة المسلمين.

يقول الأنصاريّ في قصيدته مخاطباً شهر رمضان:

تبدّيت للنّفس لقمانها ... لذاك تبثّك أشجانها
وتنتشر بين يديك الزّهور ... تحيّيك إذ صرت ربّانها
إذا لحت هبّ نسيم السّماء ... فأنشر في النّفس إيمانها
فلا غرو إن عظّمتك القلوب ... وإنْ رتّلت لك ألحانها
ولا غرو إنْ قابلتك بشوق ... وإن قدّمت لك تحنانها
فأنت ربيع الحياة البهيّ ... توقظ بالروح وسنانها[٢٢٠]

إنّ شهر الصّيام، هو حكيم النفس وطبيبها الذي تشكو إليه همّها وآلامها، وتفرح بقدومه، لأنه قائد مسيرتها إلى الشّفاء من معاناتها، والآخذ بيدها إلى دروب الهدى والتّقى والعبادة. فيه تتهذّب النفوس، وتخشع القلوب، وترتّل آياته العطرة بشوق مفعمٍ بالحنين إلى لياليه السامرة، وأيّامه العامرة، التي هي ربيع النفوس والقلوب، حيث تسمو الروح في رحاب هذا الشّهر العظيم، وتتبتّل في محراب العبادة، وتذوب في الطاعة، وتنفر عن المعصية، معلنةً ولاءها المطلق لوجه واحدٍ أحد.

فكيف لا تفرح النفوس المؤمنة بقدوم هذا الشهر العظيم، الذي أنزل فيه القرآن المجيد هدى ورحمة.

إنّ في صومه لَجْمَاً للنّفس عن التردّي المستمر طيلة شهور السّنة في مهاوي الهوى والعواطف الشهوانية التي يتردّى فيها الإنسان دائماً لأنه من جنس الحيوان... فيرتفع مستواه، أو يرفع مستواه عن مكان الانحطاط الحيواني الغريزي إلى قمم السّمو الروحاني، فتشرق روحه، وتسبح في عوالم الفتوحات الإلهيّة العلويّة، ويتشبّه أو يشبه

---

٢١٩ ديوان الأنصاريّات ص٦١-٦٣.

٢٢٠ ديوان الأنصاريّات ص٦١.

بهذا الأمر ملائكة الرحمن، الذين هم منزّهون عن الشهوات الدنيئة، ومترفّعون عن أسبابها من طعام وشراب، وما أشبه، وذلك طيلة شهر واحدٍ من سائر شهور السّنة... ويتكرّر ذلك منه كلّما أطلّ وأهلّ عليه هذا الشّهر المبارك الميمون.

إن شهر رمضان شهر الحلم والرفق، تسود فيه المحبة والألفة والاحتمال مقام التنافر والتنابز بالألقاب، لسببٍ أو لآخر، هي من خصائص شهر رمضان، شهر المحبة والألفة والتعاون، وليس رمضان شهر التباغض والتشاتم والتهاتر والتنافر والأحقاد:

يقول الأنصاريّ:

فأهلاً وسهلاً بشهر الصّيام — يسلّ من النّفس أضغانها
وأهلاً وسهلاً بشهر الصّيام — يزيح عن النّفس أدرانها
وأهلاً وسهلاً بشهر الصّيام — يشعشع في الروح عرفانها [٢٢١]

وشهر رمضان بالنسبة لشهور السّنة، هو واسطة عقدها، ودرّتها المفضلة اللامعة، وجوهرتها الثمينة... وهو من حيث نَسَقِ الشهور يجيء تاسعها في السّنة الهجرية، ومعنى ذلك أنه يقع في نهاية ثلثي العام... ويأتي بعده الثلث الثالث من الأشهر التالية له... ولحكمة ربّانيّة كان ذلك مكان شهر رمضان في نَسَقِ الشهور.

وهو الشّهر الذي تصفّد فيه الشياطين وَمَرَدَةُ الجنّ، وتغلق فيه أبواب النار تكرمة لدخول شهر رمضان، وتفتح فيه أبواب الجنّة للمسلمين، تكريماً لهم في شهر الصيام الميمون، كما أنّ فيه منادياً خاصّاً ينادي بدعوة الخير والصلاح والعتق من النار.

وفي ذلك يقول الأنصاريّ:

وإنّ الطعام ليطغى النفوس — وكنت إذا جئت ميزانها
وكل الشهور عيون الزمان — وكنت بنورك «إنسانها» [٢٢٢]

---

٢٢١ ديوان الأنصاريّات ص٦٢.

٢٢٢ ديوان الأنصاريّات ص٦٢.

وحول هذين البيتين، يقول الدكتور «عبد الله باقازي»:

«إضافة إلى جانب الصورة البديعة في البيتين التي تجعل من شهر رمضان المبارك «إنسان» عيون الزمان وإنسان العين: ناظرها، وبهذا المعنى، ركّز الشاعر من قيمة شهر رمضان المبارك بجعله أعظم الشهور، وأكثر أهمية، كما يأخذ إنسان العين قيمته وأهميته في العين الإنسانية، إضافة إلى هذا كلّه، تبرز «التورية» الجميلة المتمثّلة في «إنسانها» بما تشعّه من دلالتين: تتصل بناظر العين، والإنسان...».[٢٢٣]

وحول مكانة شهر رمضان بين الشهور، يقول الأستاذ الشاعر «محمد حسن فقي»:

سُدْتَ الشهور فأنت سيّد عامها بل أنت سيّد دهرها المتنائي[٢٢٤]

وفي قصيدة الأنصاريّ «من أخلاق الناس»[٢٢٥]، تظهر النفحات الإسلامية من خلال النص كله، لأن الشاعر يتحدّث في القصيدة عن القيم الأخلاقية، التي يجب على المرء المسلم أن يتحلّى بها، ويعمل من أجلها، كَحُسْـن التعامل مع الآخرين، وإظهار محبّتهم، ويحذّر من القيم اللا أخلاقية الدنئية التي تحطّ من إنسانية الإنسان، ومكانته عند الآخرين: كالغدر والخيانة والحسد والرّياء والتشدّق في القول والخُبْثِ والحمق و...

ومن هذه الأبيات قول الأنصاريّ:

خلائق هذي الناس تبدو ملوّنه وقلّ الذي يصفو ويخلص منهم
وغامضةٌ أحوالهم غَيْرُ بيّنه وأفعالهم تُنبيكَ لا القول عنهم[٢٢٦]

ويرى الشاعر أن طبائع الناس قد جُبلت فعلاً، إما على ورود منابع الأخلاق الكريمة أو ورود المنابع الآسنة التي تقود إلى الهلاك.

هكذا الناس: أنفسٌ تتردّى في نفاق، وأنفسٌ لن تقلا[٢٢٧]

٢٢٣ عبد القدوس الأنصاريّ شاعراً. د. عبد الله باقازي ص١٣.

٢٢٤ انظر كتاب: الصيام وتفاسير الأحكام لعبد القدوس الأنصاريّ ص١١٩.

٢٢٥ ديوان الأنصاريّات ص٢٧.

٢٢٦ ديوان الأنصاريّات ص٢٧.

ويحرص الشاعر على ذِكْرِ النّعمة التي أنعمها اللّه للإنسان، إنها «العقل» الذي به يتمكّن الإنسان من قيادة نفسه في مسالك الحياة، ويرتقي بإنسانيته إلى الدّرجة التي أرادها له خالقه الكريم، حتى يتبصّر في حياته مليّاً:

ربّ أنت الذي مننت علينا بعقول تصبو لكلّ ارتقاء[228]

وتظهر آثار التربية الإسلاميّة لشخصية الأنصاريّ بصورة جليّة، من خلال نفسية الشاعر التي يرتقي بها ليغمر حبّه وتهذيبه وأخلاقه وإنسانيته بني البشر أجمعين، ويتضرّع إلى اللّه بالدّعاء، حتى يخلّص النفوس البشرية من أدرانها كلّها، ويزرع في القلوب المعاني الإنسانية النبيلة التي تهذّب النّفوس، وتشدو المودّة والإخلاص والأمان والسلام، فيكون بذلك قد رفع عن الإنسانية الكثير من آثار الظلم والعدوانية والأحقاد، ولكن هيهات، هيهات تتحقق إرادة الشاعر أمام عدوانية المعتدين، وآثام الآثمين، ونيران المتهافتين على موارد الظلم والعدوان:

ربّاه! «إنّي للنفوس مهذّب» أزجي الكلام وأجتني لهم الوئام
ربّاه! «إنّي للحياة منظّم» أشلو على قيثارتي لحن السّلام
ولقد جهدْتُ وما فتئت محاولاً رفع البريّةِ عن مهاوي الاصطدام
فتحطّمت أطياف أحلامي على صخر الحقيقة واكتويت بكل حام[229]

ودعوة الشّاعر إلى التّعفّف بالحبّ، غذاءٌ روحيٌّ، تَزوّد الشاعر زاده من تعاليم الإسلام السّامية التي تغذى منها الحب العذري، حتى يكون بناء المجتمع بناءً على عمد متين، وحتى لا تكون أعراض المسلمين منهلاً لعبث العابثين.

يقول الأنصاريّ:

والفتى الطاهر النّزيه نزيهٌ في هواه، مهما تفاقم وجدا
يكتفي بالمحاورات والنظر العا لي إلى مَنْ هواه بالجسم شدّا
ويرى نفسه العزيزة وَقْفاً خالداً للحبيب أنّى تبدّى[230]

---

٢٢٧ ديوان الأنصاريّات ص٣٢.

٢٢٨ ديوان الأنصاريّات ص٤٨.

٢٢٩ ديوان الأنصاريّات ص٣٥.

٢٣٠ ديوان الأنصاريّات ص٨٣.

ويجب على الإنسان دائماً أن يتفكّر ويتأمّل بما حوله من كائنات ومخلوقات لعلّه يتبصّر بجمال هذا الكون العجيب الذي خلقه الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنّ آيات اللّه في خلْقه كثيرة وكثيرة، وهذا شاعرنا يقف أمام عظمة هذه الآيات التي هي فتنةٌ للناظرين، وآسرة لقلوب المعتبرين المتأمّلين:

نظر الشاعر المفكّر للكو	ن، ليجلو جماله المتضافر
فرأى «خيمة» لقد نصّبتها	قدرة اللّه فتنة للنّواظر[231]

ويرفع الشاعر من مكانة الرجال الهُداة الداعين إلى إصلاح المجتمع، الذين جعلوا قلوبهم ونفوسهم منارة من منارات الإيمان السامية، حتى تعمر الحياة الدنيا بعملٍ صالحٍ يعبرون على جسوره بسفينة الفوز والنّجاة إلى مرافئ الآخرة:

للّه قومٌ عالجوا إصلاحها	وتقدّموا بمصابح الإرشاد
شادوا على أنقاضها وطلولها	غرف السّمو بمطمحٍ مرتاد
عمروا خراب ديارهم في عيشهم	بالصالحات، فكنّ أنجع زاد
تخذوا الحياة سفينة، عبروا بها	لُجَجَ الفناء إلى أجلّ مِعاد[232]

لقد دعا عبد القدوس الأنصاريّ في شعره إلى القيم الفاضلة التي أرادها الإسلام، وحثّ عليها، فلقد قال تعالى في كتابه العزيز:

﴿والشعراء يتّبعهم الغاوون، ألم تَرَ أنّهم في كُلِّ وادٍ يهيمون، وأنّهم يقولون ما لا يفعلون، إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا اللّه كثيراً، وانتصروا من بعد ما ظُلموا...﴾.[233]

وفي مثل هذا قال الرسول الكريم ـ عليه الصلاة والسّلام:

«إنّ من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحرا».[234]

---

٢٣١ ديوان الأنصاريّات ص٢٢.

٢٣٢ ديوان الأنصاريّات ص٦٨.

٢٣٣ القرآن الكريم ـ سورة الشعراء ـ الآية ٢٢٤.

٢٣٤ رواه البخاري ومسلم.

الفصل الثالث

الأنصاريّ في مرآة الشّعر

في حقبَةٍ زمنيّة من حقب التاريخ العربي، خطّ «عبد القدّوس الأنصاريّ» حروف هجاء حياته، فتعلمتها الأجيال، وردّدتها في منابر علمها وثقافتها...

كانت الأنظار تشخص إلى شمس «عبد القدوس»، عندما كان ينسج خيوط الثقافة والفكر والأدب والتاريخ...

وبعد أن رحل، ظلّت النّفوس والقلوب دافئةً بما اختزنته من خيوط شمسه... كانت حياة الأنصاريّ روضاً عاطراً... وبعد رحيله، ظلّت نفحات عطره تملأُ المدى... وتبعث الدفء.

سيذكرني بعد الفراق أحبّتي ... ويبقى من المرء الأحاديث والذّكَرْ
وُرودُ الرُّبى بعد الرّبيع بيعدةٍ ... وَيُدْنيكَ منها في قواريره العِطْرُ [٢٣٥]

لقد خُلِقَ «عبد القدوس الأنصاريّ» فرداً، ثمّ أصبح علماً وثقافة وفكراً وأدباً وتاريخاً وآثاراً، فأصبح بعد ذلك رائداً من روّاد الأمة ، ثم تحوّل إلى جيل وأجيال...

---

٢٣٥ ديوان بدوي الجبل ص٤٢٩ ـ طبعة أولى. دار العودة بيروت ـ ١٩٧٨.

* بدوي الجبل: هو محمّد سليمان الأحمد، أحد الشعراء الأعلام، ولد في قرية «ديفة» التابعة لمحافظة اللاذقية سنة ١٩٠٤. كان والده الشيخ سليمان الأحمد من أعلام الديار الشاميّة فقهاً ولغة وأدباً.

ـ انظر «بدوي الجبل شاعر العربية والعرب» دراسة لأكرم جميل قنبس ـ دار المعرفة بدمشق ـ طبعة أولى ١٩٩٠.

هكذا تبدو صورة الأديب الشاعر المؤرّخ المفكّر العالم الجليل «عبد القدوس الأنصاريّ» في مرآة الشعر، وقد آثرت في هذه الصفحات القليلة بعض ما قيل من شعر في شخصيّة هذا المفكّر العالم الجليل...

مختارات من القصائد التي قيلت في «عبد القدوس الأنصاريّ» بعد وفاته

رحـــم اللّـــه... صاحـــب المنهـــل

الأستاذ الشاعر: محمود عارف

رحلَ مات والرّجال نوادرْ ... وقضى نحبه فأبكى المحاجرْ
قد بكيناه باليراع رثاءً ... ونعيناه بالدموع المواطر
رسم الحقّ بالوثائق حتى ... أخرج النّور من خلال الدياجر
كان «عبد القدوس» شمس منار ... «ونبيه» مصباحه في المعابر
كان «عبد القدوس» خير مقيلٍ ... للنويه وصحبه في الهواجر
كان «عبد القدوس» روض وفاءٍ ... نافحٍ بالعبيق شأن الأزاهر
كان صوتاً للفكر يجهر بالحـ ... ـقّ فتصغي له القلوب النوافر
فإذا خطّ باليراع كتاباً ... أعجب الناس من بلاغة ساحر[236]

دمـــعة ألَـــمْ

الشاعر: عبد الله محمد باشراحيل

العين بعدك لا تنام ... وأنت في دارٍ قرير
خلّفت من أثر العلوم ... براعة بين السطور
نقشت رسومك لوحةً ... للمجد بالحرف الكبير
فهنا بحوثك نَفْحُها ... يسري بأنسام العبير

---

٢٣٦ انظر صحيفة البلاد ـ ١٤٠٣/٦/٢٧هـ.

وهنــا غروســك لــم تــزل / حــذلى بأطيــاب الزهــور
والمنهــل المــورود فيــضٌ / مــاؤه... صفــو النمــير
أيــن البيــارق في نــداك / تــرفّ بــالعلم الغزيــر
أيــن المحــابر والعلــوم / يشــوقها ضــوء البــلور
أيــن الجهــابذة العظــام / تفيــض بــالدُّرّ النّثــير
أصغــت لــك الدّنيــا وأنــ / ــت بما حملــت.لهــا جديــر
حملــوك قــد حملــوا النّــدى / والصّــرح بعــدك يســتنير
قــد كرّمــوك، وأنــت أولى / مَــنْ تكرّمــه العصــور...!![٢٣٧]

دمعــة وفــاء على فقيـد العلـم والأدب الأستـاذ الكبيـر عبــد القــدوس الأنصــاريّ

الشاعر: حمزة فوده

لّمـا نعـى النّـاعي أبـا الأدبـاء / حلـو الخلائـق طيّـب الأنـداء
ضاقت بي الدنيا وَلَمْلَمْتُ الأسى / ومضيت أدوي في العراء النّـائي
ولقد بكيت وما بكيت تجزّعاً / لكنّنـي أبكـي علـى العلمـاء
إنّـا صحبنـا منهـلاً مـن نهلـه / أرْوى شباباً عـاف كُـلّ مـراء
ولئـن نضيـف بموتـه، لكنّـه / قَـدَرٌ مضـى بصبابـة النّدمـاء
وعزاؤنـا فيـه ذخـائر علمـه / تبقـى مـع الأجيـال للأحيـاء
ما مات مَنْ منح العلوم وإنّـه / خـير العطـاء سـجيّة العظمـاء
ما مات مَنْ أعطى البيان جنانه / فمـن البيـان مشـاعل الآراء
لهفي على الشيخ الجليل وإنّـه / رجل الفضائل في سنىً وسـناء
عَلَمٌ مضى، آثـاره بقيـت لنـا / عزّاً على الأيام بذل سـخاء
وعطـاؤه دُرَرُ العلـوم سـخيّة / تحيا مدى الأيّام رمز ثراء...[٢٣٨]

---

٢٣٧ انظر صحيفة الندوة ـ العدد /٧٣٢٥/ ٢٨/٦/١٤٠٣هـ.

٢٣٨ انظر صحيفة البلاد ـ ٣/٧/١٤٠٣هـ.

خطـــام القيثـــارة

الشاعر: طاهر زمخشري

سـوف يبقـى علـى الحيـاة منـاراً ... مشـــرقاً يمـــلأ الدّنـــى أنـــوارا
خـــطّ للمجـــد بالمحـــامد سـفراً ... كـــلّ سـطر قـد خلّـــد الآثـــارا
وهـي كـانت صوىً بدرب المُجَلّـين ... شـــافوا بـــالضوء منهـــا المســـارا
يتبـــارون بالمعـــارج صعـــداً ... كلّهـــم يطلـــب العـــلاء مـــدارا
شاهداً أن «عبد القدوس» كان لها الر ... ائــد بــل كـــان قـــائداً ومنـــارا
بصريـر اليـراع يغـزو سـواد الليــ ... ــل، يصطـــاد بـــالحجى الأفكـــارا
خَطْـوُهُ في الحيـاة لـم يعـرف الـ ... ـكبـوة لا .. بـل لـم يـلاق العثـارا
قطـع العمـر جـاهداً يحصـد الفكـر ... وأبقـــاه للـــورى تذكـــارا
فَسَـلِ المنهـل الـذي كـان نبعـاً ... دافقـــاً بـــالرواء بَـــزَّ البحـــارا
عَذْبُـه سلســلٌ يفيـض صفـاءً ... كم هـدى بالشّعاع منه الحيارى[٢٣٩]

أبـــا نبيـــه لـــك الغفـــران

الشاعر الرائد: محمد بن علي السنوسي

يـا صـاحب القلـم المتـألّق السّـامي ... ويـا أبـا المنهـل المتدفّـق الطّـامي
لقـد تقطّعـت لمّـا جـاءني خـبَرٌ ... كالضّرب بالسّيف من خلفي وقدّامي
فَرُحْـتُ أغمـر إحساسـي وأُغْرِقُـه ... في لُجَّـةٍ مـن أسـى قلبـي وآلامـي
وأسـتعين بإيمـاني علـى نبـأٍ ... تَمزَّقَتْ منه نفسي في أسىً دامـي
وأسـتعيد شـريطاً مـن صداقتهـا ... كأنّهـا عَـزْفُ أوتـارٍ وأنغـام
أيّـام ألقـاك في نـاديكَ معتكفـاً ... علـى المجلّـة في يُسْـرٍ وإعـدام
تُشَـذِّب الـرّوض أغصانـاً وتسـنده ... إلى الأصالـة في فـنٍّ وإحكـام
(أبـا نبيـهٍ) لـك الغفـران مـا سـطعت ... شمس الضّحى وتوارت خلف إظلام

---

٢٣٩ انظر صحيفة عكاظ ١٤٠٣/٧/٣هـ.

فقد عَرَفْتكَ عفّ الطّرس ما رعفت أقلامُه السوء في فَهْمٍ وإفهام
عذب اللّسان تقيُّ النّفس منجدة للمكرمات بإيمان وإقدام
ملاذ كلّ أديبٍ نابهٍ عَلَمٍ وركن كل أديبٍ ناشيءٍ نام[٢٤٠]

دمعة وفاء على فقد العالم الجليل

الشاعر أحمد عبد السّلام غالي

منهلٌ غاض بعدما كان ثَرًّا قُلْتُ: عبد القدّوس ودَّعَ عُمرا
كان ما بيننا حياة، وأضفى حوله من حلاوة الطّبع بِشْرًا
كان مهوى العيون، مَنْ لِعُيونٍ فَقَدَتْهُ، فأرخت الدمع حرَّى
شدَّها نحوه وقارٌ مهيبٌ فأهابت بالعقل ينشد فكرا
كان كالرّوض حيث يزدهر الخصب ويعطي، وكان في الجود بحرا
جاد بالفكر نيّراً، فتّق الوعـ ـي، وأحيا الآداب عرضاً ونشرا
عالمٌ، فاضلٌ، أديبٌ، وجيهٌ خصَّه اللّه بالمكارم قدرا
رائد الجيل كم سهرت وضحّيت ليسمو جيلٌ وينشر ذكرا
أنت من أمّة الوفاء فطوبى لوفيّ غذّى الفضائل حُرّا
ما عرفناك بين قومك إلاّ أسوةً تملأ المحافل عطرا
كم جعلت التاريخ ينبض حبّاً بعدما زِدْتَهُ وعمَّقتَ مجرى
أنت من نُخبةٍ أفاء بها اللّه علينا تخطّ للمجد سفرا
يا نصير الهدى وأنصار دين اللّه يلقون في رضى اللّه أجرا
في رحاب الجنان ترفل تيهاً وتؤدّي لبارئ الخلق شُكرا[٢٤١]

---

٢٤٠ انظر صحيفة المدينة ـ العدد /٥٨٦٩/ ٥/٧/١٤٠٣هـ.

٢٤١ انظر صحيفة المدينة ـ العدد /٥٨٧٩/ ١٥/٧/١٤٠٣هـ.

آخر القول

هذا هو عبد القدّوس الأنصاريّ بين النّثر والشّعر، علم بارز من أعلام فكرنا العربي المعاصر، وظّف حياته من أجل خدمة أبناء أمته في ميادين العلم والمعرفة، وَقَرَنَ القول بالعلم والعمل الدؤوب المثمر، تدفعه إلى ذلك همّة المؤمن، وعزيمة المثابر، وآمال الطموح المغامر.

كان ـ رحمه الله ـ واسع الاطلاع والثقافة، دقيقاً في منهجه العلمي، حريصاً على الأمانة العلميّة في البحث.

غاص في أعماق التراث العربي قارئاً، متأمّلاً، كاشفاً، باحثاً عن الحقيقة، مازجاً التراث بالمعاصرة.

وكان من رحالات التنوير المعرفي، ويكفيه فخراً، أنه صاحب أوّل مجلّة تصدر في المملكة العربيّة السعودية، وأن يزيد عمر مجلّته على الخمسين عاماً، والتي ما تزال مستمرّة في صدورها بهمّة نجله الأستاذ الأديب «نبيه بن عبد القدوس الأنصاريّ».

وبين الأدب والشعر والتاريخ والآثار، كانت محطّات استراحته، وفي الحركة الثقافية والأدبية كانت ريادته.

لقد خلّف لنا في مؤلّفاته تراثاً قيّماً، يشهد له بجليل أعماله، ما يجعله حيّاً في ذاكرة التاريخ والأجيال.

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ الصيام وتفاسير الأحكام ـ عبد القدوس الأنصاري ـ إصدار دارة المنهل ـ جدّة

٣ ـ مجموعة من الصّحف السعودية (المدينة ـ المربد ـ عكاظ ـ الجزيرة ـ الرياض ـ البلاد...).

٤ ـ ملف من الأوراق أعدّه عبد القدوس الأنصاريّ بتاريخ ١٣٩٩/٥/١٥هـ وبتاريخ ١٣٩٩/٦/٥هـ.

٥ ـ آثار المملكة العربية السعودية ـ إعداد وإصدار مدير إدارة الآثار والمتاحف التابعة لوزارة المعارف ـ طبعة ١٣٩٥هـ.

٦ ـ آثار المدينة المنوّرة ـ عبد القدوس الأنصاريّ ـ ط٣ سنة ١٣٩٣هـ.

٧ ـ بين التاريخ والآثار ـ عبد القدوس الأنصاريّ ـ ط٣ ـ جدّة ١٣٩٧هـ.

٨ ـ كُتيّب (محاضرة للدكتور فنشنزو ستريكا في روما ـ بعنوان عبد القدوس الأنصاريّ الباحث المفكّر ترجمة الدكتور جلال النادي ـ جامعة القاهرة ـ نشرت في مجلة المنهل عدد ـ ذو الحجة ١٣٩٧هـ).

٩ ـ تاريخ جُدَّة ـ عبد القدوس الأنصاريّ ـ جدّة ـ ١٣٩٣هـ ـ ١٩٦٣م.

١٠ ـ تاريخ تموين مياه العزيزية لمدينة جدّة ـ عبد القدوس الأنصاريّ ـ ١٣٨٩هـ.

١١ ـ بنو سليم في التاريخ ـ عبد القدوس الأنصاريّ ـ ط١ ـ مطابع دار العلم للملايين بيروت ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

١٢ ـ الملك عبد العزيز في مرآة الشعر ـ عبد القدوس الأنصاريّ ـ مؤسسة مكة للطباعة ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

١٣ ـ ديوان خيرالدين الزركلي ـ الأعمال الشعرية الكامله ـ مؤسسة الرسالة ـ ط١ ـ ١٩٨٠.

١٤ ـ رواية «التوأمان» ـ عبد القدوس الأنصاريّ ـ صادرة بدمشق ١٣٤٩هـ ـ ١٩٣٠م.

١٥ ـ ديوان الأنصاريّات ـ عبد القدوس الأنصاريّ ـ ط٣ ـ ١٤١١هـ ـ جدّة.

١٦ ـ عبد القدوس الأنصاريّ شاعراً ـ د. عبد الله أحمد باقازي ـ إصدار دارة المنهل ١٤١١هـ ـ جدّة.

١٧ ـ صحيفة البعث السورية ـ أعداد متفرقة.

١٨ ـ ديوان حسّان بن ثابت الأنصاريّ ـ دار بيروت للطباعة والنشر ـ ١٩٨٧م.

١٩ ـ ديوان أبي تمّام ـ ضبط وشرح ـ شاهين عطيّة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١.

٢٠ ـ تاريخ الأدب العربي ـ حنّا الفاخوري ـ الطبعة التاسعة.

٢١ ـ ديوان «صلاة على روح امرأة» ـ أكرم جميل قنبس ـ دار المجد بدمشق ـ ط١ ١٩٩٢.

٢٢ ـ ديوان بدوي الجبل ـ ط١ ـ دار العودة ـ بيروت تت ١٩٧٨م.

٢٣ ـ ديوان الشّابي ـ ط١٩٨٦ ـ دار العودة ـ بيروت.

٢٤ ـ ديوان البحتري ـ تحقيق حسن كامل الصيرفي ـ دار المعارف بمصر.

٢٥ ـ شرح القصائد العشر للتبريزي ـ ضبط وتصحيح: بعد السّلام الحوفي ـ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٧م.

٢٦ ـ معجم الأدوات النحوية ـ د. محمد ألتونجي ـ ط٦ ـ دار الفكر بدمشق ١٤٠٠هـ ـ ١٩٧٩م.

٢٧ ـ البلاغة الواضحة لعلي الجارم ومصطفى أمين ـ دار المعارف بمصر.

٢٨ ـ ديوان المتنبي بشرح العكبري ـ الجزء الثالث.

٢٩ ـ الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ـ الجزء ٢٢ ـ دار إحياء التراث العربي.

٣٠ ـ الأدب والنصوص للأول الثانوي ـ منهاج وزارة التربية في سورية ـ ١٩٩٠م.

٣١ ـ الأدب والنصوص للأول الثانوي ـ منهاج وزارة التربية بدولة الإمارات عام ١٩٩٣م.

٣٢ ـ الأدب والنصوص للثاني الثانوي ـ منهاج وزارة التربية بدولة الإمارات عام ١٩٩١م.

٣٣ ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ـ طبعة ١٩١٤.

٣٤ ـ الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ـ الجزء ٨ ـ طبعة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٣٥ ـ شرح ديوان جميل بثينة ـ المكتبة الثقافية ـ بيروت.

٣٦ ـ بدوي الجبل شاعر العربية والعرب ـ أكرم جميل قنبس ـ دار المعرفة بدمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٠.

٣٧ ـ القاموس المحيط للشيرازي ـ مكتبة النوري بدمشق.

٣٨ ـ المفضليّات للمفضّل الضبي ج١ ـ تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ـ ط٦ ـ بيروت.

دليل البحث

الصفحة

الإهداء
يا رب
المقدّمة
الباب الأوّل
الفصل الأوّل:
١ـ سيرته الذاتية
٢ـ قالوا في الأنصاريّ
الفصل الثاني:
١ـ النّشاط العلمي
٢ـ ثقافته واطلاعه
٣ـ منهجيّته
٤ـ أمانته العلميّة
٥ـ دوره في التأليف
الفصل الثالث:
الأنصاريّ بين الأصالة والمعاصرة
الفصل الرابع:
مجلّة «المنهل»
الفصل الخامس:
١ـ دور الأنصاريّ في الحركة الثقافية والأدبيّة
٢ـ الأنصاريّ من جيل الصّدق والالتزام

٣- الرّابطة الأدبيّة
٤- النّقد الأدبي في حياة الأنصاريّ
٥- رسالة الصحافة الإسلامية في مفهوم الأنصاريّ
الفصل السادس:
رحلة بين مؤلّفات الأنصاريّ:
١- كتاب: آثار المدينة المنوّرة
٢- كتاب: بين التاريخ والآثار.
٣- كتاب: تاريخ جدّة.
٤- كتاب: تاريخ تموين مياه العزيزيّة لمدينة جدّة
٥- كتاب: بنو سليم في التاريخ
٦- الملك عبد العزيز في مرآة الشّعر
- اخترت لك من قصائد البحث: قصيدة لخير الدين الزركلي
- صورة عن الريادة في الأدب السّعودي
٧- كتاب: الصّيام وتفاسير الأحكام
٨- رواية «التوأمان»
الباب الثاني
الأنصاريّات في ميزان الشّعر
الفصل الأوّل:
١- ديوان الأنصاريّات
٢- الأنصاريّ الشاعر بين الأصالة والتجديد
٣- إشكالية الأصالة والحداثة في الساحة الشعرية
الفصل الثاني:
الجوانب الشعرية في ديوان الأنصاريّات:
١- شعر الطبيعة
٢- شعر التأمّل
٣- شعر الحبّ والحرب

٤ـ شعر الوصف
٥ـ شعر الرّثاء
٦ـ شعر الغزل
٧ـ شعر الفكاهة والظّرف
الشعر الإسلامي
الفصل الثالث:
عبد القدوس الأنصاريّ في مرآة الشعر
آخر القول
المصادر والمراجع
دليل البحث

صدر للمؤلف*

١ - اللهب المجدول - شعر - دمشق ١٩٨٨م.

٢ - رحلة في عيون - شعر - دمشق ١٩٩١م.

٣ - صلاة على روح امرأة - شعر - دمشق ١٩٩٢ - بالتعاون مع اتحاد الكتاب العرب بسورية.

٤ - إليك يا حبيبتي - شعر - اتحاد الكتاب العرب بدمشق ١٩٩٤م.

٥ - لهيب الانتماء - شعر - دمشق ١٩٩٥م.

٦ - بدوي الجبل شاعر العربية والعرب - دار المعرفة بدمشق - ط١ - ١٩٩٠ - دراسة.

٧ - معجم الإملاء العربي - دار الوسام - بيروت - ١٩٩٤م.

٨ - عبد القدوس الأنصاريّ من روّاد الأدب والفكر العربي والإسلامي - دمشق - دار الفرائد - ١٩٩٦م.

سيصدر له

١ - وجهك فاتحة قلبي - شعر.

٢ - الشهادة في الشعر العربي المعاصر - دراسة.

٣ - خير الدين الزركلي حامل لواء الشعر والجهاد - دراسة.

٤ - شرح وتحقيق ديوان الإمام الشافعي.

٥ - أسفار عاشق - ديوان شعر.

٦ - تربية الأبناء بين الهدف التربوي والسلوك التعليمي.

---

* المؤلّف:

- عضو اتحاد الكتاب العرب - سورية.
- عضو اتحاد كتّاب وأدباء الإمارات.
- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب - الأمانة العامة.

صدر عن دار الفرائد

١	ـ قصة بانت سعاد	أحمد قوماندار مصطفى الحسن
٢	ـ من أخبار الحسن البصري	عبد الرحمن النابلسي (تحقيق)
٣	ـ أخبار الحفظ القرآن (لابن عساكر)	تحقيق خير الله الشريف
٤	ـ معجزة الإسراء والمعراج	الشيخ سليم فهد شبعانيّة
٥	ـ عبد القدوس الأنصاري من رواد الأدب العربي والإسلامي	تأليف أكرم جميل قنبس

تحت الطبع:

١ ـ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (لابن حبان)	تحقيق أحمد قوماندار مصطفى الحسن
٢ـ أدب الأذكياء وأخبارهم لابن الجوزي	تحقيق أحمد قوماندار مصطفى الحسن
٣ ـ ديوان يا ليل الصب لأربعين شاعراً	تحقيق أحمد قوماندار مصطفى الحسن

دار الفرائد ـ دمشق ـ السيدة زينب
مفرق البيرقدار ـ هاتف: ٦٤١٦٣٧٢



آخر القول

هذا هو عبد القدّوس الأنصاريّ بين النّثر والشّعر، علم بارز من أعلام فكرنا العربي المعاصر، وظّف حياته من أجل خدمة أبناء أمته في ميادين العلم والمعرفة، وَقَرَنَ القول بالعلم والعمل الدؤوب المثمر، تدفعه إلى ذلك همّة المؤمن، وعزيمة المثابر، وآمال الطموح المغامر.

كان ـ رحمه الله ـ واسع الاطلاع والثقافة، دقيقاً في منهجه العلمي، حريصاً على الأمانة العلميّة في البحث.

غاص في أعماق التراث العربي قارئاً، متأمّلاً، كاشفاً، باحثاً عن الحقيقة، مازجاً التراث بالمعاصرة.

وكان من رحالات التنوير المعرفي، ويكفيه فخراً، أنه صاحب أوّل مجلّة تصدر في المملكة العربيّة السعودية، وأن يزيد عمر مجلّته على الخمسين عاماً، والتي ما تزال مستمرّة في صدورها بهمّة نجله الأستاذ الأديب «نبيه بن عبد القدوس الأنصاريّ».

وبين الأدب والشعر والتاريخ والآثار، كانت محطّات استراحته، وفي الحركة الثقافية والأدبية كانت ريادته.

لقد خلّف لنا في مؤلّفاته تراثاً قيّماً، يشهد له بجليل أعماله، ما يجعله حيّاً في ذاكرة التاريخ والأجيال.